المعنى والمبنى في تصوير الريح في القرآن الكريم

دكتور
عبد الحكيم بن راشد بن إبراهيم الشبرمي
كلية التربية – جامعة الملك عبد العزيز بجدة
المملكة العربية السعودية

مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصّلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين أمّا بعد: فالوقوفُ مع القرآنِ الكريمِ في آياتِه وعظاتِه ، وعبرِه وعباراتِه ؛ يصفُّ قدمي المتأمِّل ليثبِّتَه، ويكشفَ له شيئا من السِّرِّ وراءَ خلودِ هذا الكتاب وبقائه أبدَ الدهر ، مهما حاك له أهلُ الباطلِ أو حاولوا الزيادةَ فيه والنقصان ، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر–٩ .

وهذا البحث يتناول أثرَ التعبير القرآنيّ في وصفِ آيةٍ من آياتِ الله ، وهي الريحُ المرسلةُ في حالاتِها المتنوِّعة ، وقوفا مع وصف الريح في أصلها اللغويّ ، ومواطنِ ذكرها في القرآن الكريم وحالاتِ هذا الذِكْر ، ودراسةِ المعنى والمبنى وفقَ هذه الإيراداتِ القرآنيّةِ للريح ، مع تناولِ سياقاتِها من حيث كونُها دالّةً على الخير أو الشرِّ ، والتأشير على مواردها حين تكون عذابا أو جندا لنبيِّ الله سليمانَ – عليه السلام – ، أو مسوقةً في مساقِ الامتنان والعظة أو في مساقِ التشبيه والتمثيل ، أو في مساقٍ آخرَ جاء في موطنين من الكتاب الكريم ومردُّه –كماسيأتي – إلى السياقاتِ السابقةِ بوجه عامٍّ.

ومن أسبابِ هذه الدراسة مايأتي:

١/ أنّ هذا التناولَ يوقفنا مع بيانِ القرآن الكريمِ ، ودقّةِ تصويرِه وروعتِه ، ويكشف لناشيئامن دوائرِ التأْثير الوجدانيِّ والبيانيّ واللّغويّ لآياتِه العظيمة

٢/ أنّ هذه الدوائرَ البحثيّةَ تزيد من تعلُّقِ الأديبِ ببيانِ القرآن ، وتُلْهب حماسَه ليقاربَ مستوى أعلى من بيانِ البشر ، يتأمّله ويقف مع جماليّاتِ تعبيرِه وتصويرِه ، وهذا بلا شكٍّ ينعكس على أسلوبِه ونِتاجِه.

٣/ أنّ هذه الدراسةَ ومثيلاتِها، تضيف للمكتبةِ العربيّةِ عمْقا آخرَ ، وتطبيقاتٍ مقرِّبةً ليعيش الباحثون والدارسون والمتأمِّلون النصوصَ القرآنيّةَ ويتذوّقوها ، وينطلقوا في آفاقِ الكتاب العظيم.

٤/ أنّ هذا التأمُّلَ يبيِّن لنا أوجها متعدِّدةً من إعجازِ القرآن الكريمِ ، ومع كلِّ تأمُّلٍ تتكشّف للباحثين صفحاتٌ لم تكن لتتكشَّفَ لولا توفيقُ اللهِ وفضلُه ، ثمّ مثلُ هذا التروِّي في النظر والتناول.

أمّا الدراساتُ السابقةُ ؛فلم أجد مَنْ وقف هذه الوقفاتِ بوصفها ومقاصدِها ، أو لَمّ الشعثَ ، وعدَّد الإيراداتِ وسياقاتِها القرآنيّة ، وأبان أثرَ هذه السياقاتِ والمناسباتِ في المعنى وطريقةَ القرآن في تصويرِها والتعبيرِ عنها مجتمعةً في الحياضِ التي أردناها.

وأمّا عن المنهج الذي سلكه الباحثُ فهو المنهج التحليليُّ الوصفيّ الذي يقف مع النصوصِ ويقارنها بغيرِها ، ويؤشِّر على نقاطِ التميُّزِ في التأثيرِ.وقد اقتضت طبيعةُ البحثِ أنْ يكون وفق هذه الهيكلة:مقدّمة . ثمّ تمهيدٌ عن الريح وكونها آيةً ربّانيّةً ، وما جاء في خلقها وتسخيرِها ووجوبِ تأمّل خلْقِ الله لها. ثمّ وقف الباحثّ مع البساطِ اللّغويّ للريح في معجماتِ العربيّة ،في المبحث الأوّل من الدراسة ، ثمّ كان المبحث الثاني عن مواطنِ ذكرِها في القرآن الكريم ، وتقسيم هذا الذِكْر ، ثمّ كان المبحث الثالثُ عن الفروق بينها وبين (الرياح) لفظا ومعنى في سياقاتِ القرآنِ ، وكان المبحث الرابعُ مجلِّيا حالاتِ إيرادِ الريح وكشف المبنى والمعنى في هذه الحالاتِ وسياقاتِها المختلفة.ثمّ الخاتمة والنتائج، والمراجع.

واللهَ أسألُ أنْ يبسطَ علينا من تفهيمِه وتعليمِه ، وأنْ يجعلَنا من أهلِ القرآن ، الذين هم أهلُه وخاصّتُه. إنّه وليُّ ذلك والقادرُ عليه ، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على سيِّدِنا محمّدٍ وعلى آلِه وصحبِه أجمعين.

تمهيد / مدخل (الريح وخَلْقُها):

الريح جند من جنود الله ، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[١] ، بل كان عرشه – سبحانه – على الماء ، وكان الماء على الريح كما قال حَبْرُ الأمةِ ترجمانُ القرآن – رضي الله عنهما – في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾[٢] : « كان على متن الريح »[٣] وقيل منها ريحٌ في الجنة خلقها الله ، كما جاء في الحديث : « إنّ الله خلق في الجنة ريحاً بعد الريح بسبع سنين ، فمن دونها بابٌ مغلق ، وإنّما يأتيكم الروحُ من خِلَلِ ذلك الباب . ولو فُتح ذلك لأَذْرَتْ ما بين السماء والأرض . وهي عند الله الأزيبُ وعندكم الجنوب »[٤] .وهي خلق عجيب له حِكمٌ وأغراض .

و« الريح تُبْعث عذاباً لقوم ورحمةً لآخرين »[٥] ولو اشتدّت على خلق الله فإنّها لا تُسبّ ولا يُتسخَّطُ منها ؛ فقد جاء في الحديث : « لا تسبُّوا الريحَ فإنّها من رُوْح الله تعالى ، تأتي بالرحمة والعذاب ، ولكن سلوا الله من خيرها وتعوّذوا بالله من شرِّها »[٦] .بل قال : «

---

(١) (المدثر) (٣١) .

(٢) (هود) (٧) .

(٣) أخرج الأثر الدارمي في الرد على المريسي (٤٤٥) ، وابن أبي عاصم في السنة (١ / ٢٥٨) ،وابن جرير في تفسيره (١٥ / ٢٤٩) ، كلهم من طرق عن سفيان عن الأعمش بنحوه . قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وسكت عنه الذهبي . وإسناده جيد موقوف .ظ ((محمد بن عثمان بن أبي شيبة وكتابه العرش) دراسة وتحقيق د. محمد التميمي .قسم التحقيق(٣٠١).

(٤) أخرجه إسحاق بن راهويه في المطالب العالية (٣٤٢٩) ، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٩٩٥) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥/٨) : فيه يزيد بن عياض بن جعدبة وهو كذاب . وقال الألباني في السلسلة الضعيفة والموضوعة (٧ / ٧٥): موضوع.و ظ (ضعيف الجامع) الألباني حديث رقم (١٦٠٧) .

(٥) رواه الحاكم في تاريخه عن ابن عمر كما في جمع الجوامع(١ / ١٣٠٢٧) وقال المناوي (٦٠/٤) : فيه عمرو بن دينار قهرمان آل الزبير قال الذهبي: متفق على ضعفه .ولكنّ الألباني صححه في السلسلة الصحيحة (٤ / ٣٧٣) وقال: يشهد له حديث أبي هريرة .و ظ (صحيح الجامع) الألباني حديث رقم (٣٥٦٣) .

(٦) رواه أحمد (٧٤٠٧) ، وابن ماجه (٣٧٢٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٢٧٥٧).

لا تلعنِ الريحَ فإنَّها مأمورةٌ . وإنّه من لعن شيئاً ليس له بأهلٍ رجعتِ اللعنةُ عليه»[١] .

وجعلها الله دليلاً على ذهاب الباطل ؛ فقد صحّ أنّه – عليه الصلاة والسلام – قدم من سفر فلما كان قرب المدينة هاجت الريح التي كادت أن تدفنَ الراكبَ فقال : بُعثتْ هذه الريحُ لموت منافق . فقدم المدينةَ فإذا عظيمٌ من المنافقين قد مات[٢] .

والريح مِنْ خلق الله ، و« كلٌّ خَلْقِ الله تعالى حسنٌ »[٣] ، ومن مسبِّحاته – سبحانه – لأنها من خَلْقه ، وفي الحديث : « ما تستقلّ الشمس فيبقى شيء من خلق الله عزّ وجلّ إلا سبَّح الله عزّ وجلّ وحمده إلا ما كان من الشيطان وأعتى بني آدم »[٤] .

وقد خلق اللهُ العرشَ وكان على الماء ، وكان الماءُ على متن الريح[٥] ، فالعرش والماء والماء والريح كانا قبل السموات والأرض[٦] .

وقد أُمرنا بالتفكّر في مخلوقات الله – سبحانه – والنظر في عبرها وعظاتها ، قال سبحانه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٧] وكرّرها في كتابه هكذا ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سبع مرّات ، وقال – عليه الصلاة والسلام – في الحديث الصحيح : « تفكّروا في خلق الله ولا تفكروا في الله »[٨] .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٨) ، والترمذي (١٩٧٨) وقال : حسن غريب .وانظر (السلسلة الصحيحة) الألباني (٢ / ٦٢) حديث (٥٢٨) .

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣١٥) ومسلم .كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث رقم (٢٧٨٢) .

(٣) أخرجه أحمد (١٩٧٠٤) ، (١٩٧٠١) قال الهيثمي (٥/١٢٤) : رجال أحمد رجال الصحيح.
وانظر (صحيح الجامع (٤٥٢٢) .

(٤) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٩٦٠) وأبو نعيم في الحلية (٦/١١١) من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه.وانظر (السلسلة الصحيحة) (٥ / ٢٦٤) حديث رقم ٢٢٢٤ .

(٥)أخرجه ابن أبي عاصم في(السنة) وإسناده صحيح (١/٢٥٨)حديث رقم (٥٨٤) ت: الألباني

(٦) ظ (مفاتيح الغيب) الرازي (١٧ / ١٩٤) .

(٧) (الرعد) (٣) .

(٨)أخرجه أبو نعيم في الحلية كما في جمع الجوامع (١ / ١١٠٨٥) وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٤ / ٢٨٧): الحديث بمجموع طرقه حسن عندي ، و الله أعلم .وانظر (صحيح الجامع) الألباني حديث رقم (٢٩٧٦)

=

والتفكّر في خلق الريح ووظائفها وأحوالها وتَصْريف الله لها هنا وهناك من التفكّر الذي يذكي القلبَ ويُنيره ، فمع هدايات القرآن الكريم في هذه اللَّوحة العجيبة (لوحة الريح) تصويراً ورسْماً .. مشهداً وحرفاً ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[١] .

فسبحان مجري الريحِ في كلِّ موضعٍ لتبلغَ كلَّ العالمينَ وتشملُ[٢]

سبحان من جعل « لها ذاتاً وإدراكاً تخضع لأمر خالقها وموجدها »[٣] . وجعلها تشفق من عظمته وقدرته وتخاف الساعةَ وترهبها فقد ثبت في الحديث قولُ النبيِّ – عليه الصلاة والسلام – عن يوم الجمعة : « وفيه تقوم الساعة . ما من مَلَك مقرَّب ولا سماءٍ ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا هو مشفق من يوم الجمعة »[٤] .

المبحث الأوّل/ الريح في اللغة :

أصْلُ الريح في المعجمات[٥] دالٌّ على السَّعَةِ والفسحة والاطّراد ، فالراء والواو والحاء أصلٌ كبيرٌ مطَّردٌ ، وأصلُ الياءِ فيها الواوُ ، قُلبت ياءً لكسرة ما قبلها ، والرُّوْح روح الإنسان مشتقٌّ من الريح ، والرَّوْحُ نسيمُ الريح .وأراح الإنسانُ إذا تنفَّس ، والرَّوَاحُ العَشِيُّ لِرَوْحِ الريح وهبوبها بعد الزوال غالباً .ويُقال يومٌ راحٌ أي ذو ريح شديدة ، ويومٌ رَيِّحٌ طيِّب .

=

).

(١) (النساء) (٨٢) .

(٢) البيت للبرعي . ظ ديوان البرعي (١٩) وهو من البحر الطويل .

(٣) (عبودية الكائنات) فريد التوني (٣١٦) .

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٥١٠) والبخاري في التاريخ الكبير (٤٤/٤) قال الهيثمي (١٦٣/٢) : فيه عبد الله بن محمد بن عقيل وفيه كلام ، وقد وثق ، وبقية رجاله ثقات . وضعفه الألباني في السلسة الضعيفة (٣٧٢٦) وانظر (مشكاة المصابيح) محمد التبريزي ت : الألباني (١ / ٤٣٠) حديث رقم (١٣٦٣) .

(٥) ظ (معجم مقاييس اللغة) ابن فارس مادة (روح) (٢ / ٤٥٤ – ٤٥٦) .

و« الريح نسيم الهواء وكذلك نسيمُ كلِّ شيء. وهي مؤنّثة »[١] ؛ ولذا تزاد تاءُ التأنيث آخرها عند التصغير فيُقال : رُوَيحة[٢] .

والرِّيْحةُ الطائفةُ من الريح ، ويجوز أن يدلَّ الواحد على دلالة الجمع ذاتِها، وحُكي ريح وريحة ككوكب وكوكبة ، وجمع (الريح) أرواح وأراويح جمع الجمع وتصغيرها (رُوَيْحة) وجمعها رِياح وأَرْواح ، ونقل عن بعضهم أن الريح واحدة الرياح .

ويُقال الريحُ لآل فلان أي النصر والدولة ، وكان لفلانٍ ريحٌ . وراح يَرَاح رَيْحاً إذا اشتدَّتْ رِيْحُه . وهو مَرُوْحٌ أي أصابتْه الريح .

ويُقال : راحَتِ الريحُ الشيءَ أصابَتْه ، فشجرةٌ مَرُوْحَةٌ إذا هبَّتْ بها الريح .وأراحَ القومُ دخلوا في الريح . ورِيْحُوا أصابتْهم الريح . والمَرْوَحَةُ المفازةُ تخترقها الريح وجمعها مراوِيح .

ويُقال : أَرَاحَ يُرِيْحُ ، وراحَ يَرَاحُ ويَرِيْحُ الروضةَ أي وجد ريحَها . والمِرْوَح والمِرْواحُ الذي يُذَرّى به الطعام في الريح . واستروح الغُصْنُ اهتزَّ بالريح ، ويومٌ رَيِّحٌ ورَوْحٌ ورَيُوْح طيِّبُ الريح ومكانٌ رَيِّحٌ كذلك .

والرَّوْحُ بَرْدُ نسيم الريح تخصيصاً . ويُقال يومٌ رَيِّحٌ وراحٌ ذو ريحٍ شديدة . والرَّوْحُ الرحمةُ والرزقُ والاستراحة والبَرْد كقوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾[٣] والرحمة كذلك مثل قوله:﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾[٤] لأنّ الراحةَ بها . والرُّوْح في كلام العرب النفخُ لأنّه ريحٌ يخرج من الرُّوح ومنه قول الشاعر في نار اقتدحها وأمر صاحبَه بأن ينفُخَ فيها[٥]:

---

(١) (لسان العرب) ابن منظور ، مادة (روح) (٣ / ١٧٦٣) .

(٢) ظ (الريح) ابن خالويه (٢٤) وقد ذكر لها ألفاظاً عديدة عند العرب مثل : (الجافلة / الرخاء / الرهاء / الراحة / السافرة / الساكرة / الحنون / الخارم / الدروج) وغيرها .
وظ (الغريب المصنَّف) أبو عبيد القاسم بن سلام (٥١٠ – ٥١٢) .

(٣) (الواقعة) (٨٩) .

(٤) (يوسف) (٨٧) .

(٥) البيت لذي الرمّة ، ظ (ديوان ذي الرمّة) (٤٨٧) وهو من الطويل. واقتته قيتة أي اجعل فوقها قوتاً =

وقُلْتُ له ارفعْها إليك فأَحْيِها بِرُوحك واقْتَتْهُ لها قِيْتَةً قَدْرا

أي أحيها بنفخك واجعلِ الرُّوحَ والنفخَ للنار .

وأراح وَجَدَ نسيمَ الريحِ ودخل في الرَّواح ونزل عن بعيره ليُريحَه تأتي بهذه المعاني[١] .

والرِّيْحُ عند العرب قريبةٌ من الرُّوْح كما قالوا : تِيْه وتُوْهٌ . وملأ فلانٌ القربة من رُوْحه أي نَفَسِه[٢] .

إذنْ فالرَّوْحُ والرُّوْحُ في الأصل واحد ، وجُعل الرُّوحُ اْسماً للنَّفَسِ واسماً للجزء الذي به تحصل الحياةُ والتحرُّك . والرَّوْحُ التنفُّسُ . وقد أراح الإنسانُ إذا تنفَّس .

والرِّيْحُ الهواءُ المتحرِّك ، ويُقال : رِيْحَ الغديرُ يُرَاح أي أصابتْه الريحُ ، ويُقال كذلك : راح فلانٌ إلى أهله إمّا أنّه أسرع إليهم كالريح وإمّا أنه استفاد رَوْحاً من المسرَّة والفرح .

والراحةُ من الرَّوْح ، ويُقال عند العرب : افعل ذلك في سَرَاح ورَوَاح أي : سهولة . ويُقال لا تيأس من رَوْح الله أي فَرَجِه ورحمتِه وهو[٣] من الرَّوْح . والريح فيها سرعة ؛ ولذا تقول العرب : ركب فلانٌ ذَنَبَ الريح ، أَي سَبَقَ فلم يُدْرَك[٤] ، وإلاّ فهي ريح ساكنة ، ومنه قولهم : رَجُلٌ ساكنُ الريح أي وقور[٥] . ويقولون : صامَتِ الريحُ أي رَكَدَتْ[٦] .

وإذا اجتمع المتحابّان قيل : ريحُهما جنوبٌ . وإذا تفرّقا قيل ريحُهما شمالٌ ؛ لأنّ الشمالَ تفرِّق السحابَ والجنوبَ تجمّع[٧] .

=

قليلاً من الحطب الناعم .

(١) ظ (لسان العرب) ابن منظور ، مادة (ريح) (٣ / ١٧٦٤ – ١٧٦٨) .

(٢) ظ (المرجع نفسه) مادة (روح) (٣ / ١٧٦٩) .

(٣) ظ (مفردات ألفاظ القرآن) الراغب الأصفهاني (٣٦٩ – ٣٧١) .

(٤) ظ (أساس البلاغة) الزمخشري (١ / ٣١٨) .

(٥) ظ (المرجع السابق) (١ / ٣٩٣) .

(٦) ظ (المرجع نفسه) (١ / ٥٦٥) .

(٧) ظ (الريح) ابن خالويه (٥٧) .

المبحث الثاني / ذكرها في القرآن :

وردتِ الإشارةُ إلى (الريح) معرّفة أو منكّرةً في القرآن الكريم تسع عشرة مرةً في المواطن الآتية من السور(وفي يونسَ موطنان) :

(آل عمران / ١١٧) (الأنفال / ٤٦) (يونس/ ٢٢) (يوسف / ٩٤) (إبراهيم / ١٨) (الإسراء / ٦٩) (الأنبياء/ ٨١) (الحج / ٣١) (الروم/ ٥١) (الأحزاب/ ٩) (سبأ / ١٢) (ص / ٣٦) (فصلت / ١٦) (الشورى / ٣٣) (الأحقاف / ٢٤) (الذاريات / ٤١) (القمر / ١٩) (الحاقة / ٦) .

فجاءت في هذه المواطن نكرةً في ثمانية منها ومعرفة في المواطن الأخرى، ويمكننا تقسيم ورودها في هذه المواطن كلّها على النحو الآتي :

أولاً : كون الريح عذاباً أليماً :

وهذا في الآيات الآتية :

١ – (الإسراء / ٦٩) ، قال تعالى:﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ .

٢ – (الأحزاب / ٩) قال تعالى عن كفار مكة وأهل الأحزاب ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ .

٣ – (الأحقاف / ٢٤) قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

٤ – (فصلت / ١٦) قال تعالى في عاد : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ .

٥ – (الذاريات / ٤١) قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ .

٦ – (القمر / ١٩) قال تعالى في عاد كذلك : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ .

٧ – (الحاقة / ٦) قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾

ثانياً : كون الريح من جند سليمان – عليه السلام – :

وهذا في الآيات الآتية :

١ – (الأنبياء / ٨١) قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ .

٢ – (سبأ / ١٢) قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

٣ – (ص / ٣٦) قال تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ .

ثالثاً : كون الريح آية للخَلْق في سياق الامتنان :

وهذا في ثلاثة مواطن :

١ – (يونس / ٢٢) قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

٢ – (الشورى / ٣٣) قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

٣ – (الروم / ٥١) قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ .

رابعاً : كونها في سياق التشبيه والتمثيل :

١ – (آل عمران / ١١٧) قال تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

٢ – (إبراهيم / ١٨) قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ

اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ .

٣ – (الحج / ٣١) قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .

<u>خامساً :</u> سياق آخر :

١ – (الأنفال / ٤٦) قال – سبحانه – : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

٢ – (يوسف / ٩٤) قال – جل سلطانه – : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ .

هذه هي المواطن التي جاء فيها ذكرُ الريح في القرآن الكريم معْرفةً ونكرةً في السياقات.

<u>المبحث الثالث / بينها وبين الرياح :</u>

ذُكرت الرياحُ في كتاب الله عشرَ مرّاتٍ في مواطنَ مختلفةٍ ، يمكننا أن نقسِّمَها إلى هذا التقسيم الثلاثيّ :

<u>أولاً :</u> ذكر الرياحِ آيةً عامّةً للخَلْق : في موطنين اثنين :

١ / في قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة / ١٦٤) .

٢ /في قوله:﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الجاثية / ٥)

فهي هنا آية تحرّك العقل نحو خالقِه المستحقِّ الربوبيةَ والألوهيّةَ الذي سخّر هذه الآية ويسَّر تصريفَها لخَلْقه .

<u>ثانياً :</u> ذكر الرياح مثلاً– مع إنزال الماء وخروج النبات وزواله– على زوال الدنيا وفنائها .

وهو في موطن واحد :

قال – سبحانه – : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ (الكهف / ٤٥) .

ثالثاً : ذكرُ الرياحِ بشرى بين يدي إنزال الغيث :

وهذا في سبعة مواطن من كتاب الله ، جاءت هكذا – حسب ترتيب المصحف – :

١ / ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف / ٥٧) .

٢/ ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (الحِجْر / ٢٢) .

٣ / ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ (الفرقان / ٤٨) .

٤/ ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النمل / ٦٣) .

٥ / ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الروم / ٤٦) ٦/ ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (الروم / ٤٨) .

٧ / ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ (فاطر / ٩) .

ولاشكّ أنّ هذه المواطنَ العشرةَ تكشف لنا لأوّل وهلةٍ أنّ وصْفَ (الرياح) في الكتاب الكريم يجيء لبيان ما في هذه الرياح من الرحمة والبشارة والعبرة للخَلْق قُبَالة خالقِهم ورازقهم الذي جعل هذه الرياحَ آيةً دالّةً على قدرته وعظمته ، وسخّرها لهم وصرّفها ، فهل يعقلون ؟

وجعلها مضمَّنة في مَثَل هذه الحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها ونمائها وكأنّها «قصّةٌ قصيرةٌ ، لا بقاء لها ولا قرار» [١] .

ويكشف لنا سياقُ الآيات التي جاء فيها ذكرُ الرياحِ أنّها تبشِّر بالغيث وهي الريحُ الطيِّبة اللّيّنة المتفرِّقة ، التي تهبّ من كلِّ ناحية ، فتحمل الرياحُ السحابَ الثِقَالَ بالغيث فيسوقه اللهُ بأمره إلى بلد ميِّت محتاج لا نبات فيه ، وجعل هذا سبيلاً للدلالة على إحياء الموتى[٢] ، كما قال في الآية الأُخرى ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾[٣] .

وسمّاها (لواقحَ) ؛ لأنّها سبب إنزال الغيث من السماء . والريحُ العقيم المذكورةُ في القرآن أي التي لا تلقح[٤] فتكون غيرَ نافعةٍ حينها لمن أُرسلت إليه . و(العقيمُ) هنا تعبيٌر لطيفٌ إذِ استعملت فيه الاستعارة[٥] فالمستعار منه ما في المرأة من الصفة المانعة من الحمل والمستعار له ما في الريح من الصفة المانعة من المطر وتلقيح الشجر ، فالطرفان حسّيّان والجامعُ عقليٌّ فيه.

ومن هنا يتبين لنا أنّ ذكرَ الرياحِ في القرآن الكريم يجيء في غالبه للتبشير بالغيث والخير والرحمة بين يدي الخَلْق ، وجاء ذكرُها في موطن سورة الكهف السابق مثلاً للدنيا ، وذُكر فيه الغيث ونزولُه ونفعه للناس ثم ذهابُه وذهابُ محصّلتِه وهو النباتُ في الأرض لتكتملَ الصورةُ التي يريدها التعبيرُ القرآنيُّ الفريد .

وفي الموطنين الآخرين من سورتي (البقرة – الجاثية) السابق ذكرُهما نرى سياقَ الآيات يدور حول آيةِ تصريف الرياح هذه وتسخيرِها لتكونَ دالّةً على عظيم خلق الله لقومٍ يعقلون

---

(١) (في ظلال القرآن) سيد قطب (٤ / ٢٢٧١) .
(٢) ظ (معالم التنزيل) البغوي (٣ / ٢٣٩) .
(٣) (فاطر) (٩) .
(٤) ظ (المطر والرعد والبرق والريح) ابن أبي الدنيا (١٤٤) .
(٥) ظ (الإيضاح في علوم البلاغة) القزويني (٢٢٥) .

وهذا يؤيِّده قولُه تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾[١] إذْ« بيّن في هذه الآية الكريمة أنه يحمل السحابَ على الريح ، ثم يسوقه إلى حيث يشاء من بقاع الأرض »[٢] .

والخلاصة أنّ لفظَها بالجمع يجيء مع الرحمة في القرآن[٣] ، وإفرادَها مع العذاب بالنظر إلى الأغلب وروداً في كتاب الله ، كقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾[٤] وقوله : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾[٥] إلاّ ما نجده في سورة (يونسَ)في قوله تعالى : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[٦] . وما ورد عنه – عليه الصلاة والسلام – أنه كان يقول عند هبوب الريح : اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً[٧] فمشهورٌ لكنّه لا يصحّ عنه ،ولو صحّ لكان شاهداً حسناً لهذا ، ولكن يكفينا من القول أنه أغلبيٌّ من جهة وروده في كتاب الله ، ففي مواطن كونِ الريح عذاباً – كما سبق – نجد أنّ التعبيرَ بلفظ (ريح) –معرفة أو نكرة – جاء موصوفاً بما يوحي بالعذاب ويَشِيْ به ، كقوله : قاصفاً – فيها عذاب – صرصراً – العقيم – صرصرٍ – وأمّا موطنُ (الأحزاب) فسياق الآياتِ دالٌّ على أنّها عذاب أليمٌ لكفّار مكةَ ومَنْ لفّ لفّهم من المعاندين المجتمعين على حرب سيِّدنا محمّدٍ عليه الصلاة والسلام وصحبه – رضي الله عنهم – إذ يقول الحقُّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[٨] .

---

(١) (الأعراف) (٥٧) .

(٢) (أضواء البيان) الشنقيطي (٢ / ٣٣) .

(٣) ظ (الجامع لأحكام القرآن) القرطبي (٢ / ١٩٨) .

(٤) (الروم) (٤٦) .

(٥) (الذاريات) (٤١) .

(٦) (يونس) (٢٢) .

(٧) رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً وهو باطل لا يصح . وقال الطحاويّ لا أصل له .
ظ (السلسلة الصحيحة) الألباني (٦ / ٦٠٢) حديث (٢٧٥٦) .

(٨) (الأحزاب) (٩) .

فالجنود في أوّل الآية جنودُ الأحزاب من كفّار مكةَ وقريظةَ وغيرِهم ، فأرسل الله عليهم ريحَ الصَّبا حتى كفأتْ قدورَهم ونزعتْ فساطيطَهم حتى أظعنتهم وفرُّوا ، وأرسل اللهُ مع الريح ملائكتَه ولم تقاتل يومئذ(١) .

فسياقُ الآياتِ دالٌّ على العذاب الأليم في هذه (الريح) المرسلة ،مثبتٌ أغلبيّةَ مجيءِ الريح للعذاب في سياقات القرآن ، كما أنّ مجيء الرياح مبشراتٍ لواقحَ كذلك .

ويشهد لمجيء الريح للرحمة كذلك ما ثبت في الأثر عن « مجاهد : هاجت ريحٌ فسبُّوها . فقال ابنُ عبّاس : لا تسبّوها ؛ فإنّها تجيء بالرحمة وتجيء بالعذاب ولكنْ قولوا : اللّهمّ اجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً »(٢) .

وبهذا يكون القولُ بمجيء (الرياح) للرحمة و(الريح) للعذاب قولاً بالأغلبيّة ورواداً في كتاب الله لأنّ الريحَ وردتْ (طيّبةً) للرحمة في سورة يونسَ كما أسلفنا و« الرياح تأتي من كلِّ ناحية فتوازن الكائنات أمّا الريح فهي تأتي من ناحية واحدة فتدهم ما في طريقها »(٣).

المبحث الرابع / حالات الريح في القرآن الكريم معنى ومبنى :

كما سبق فإنّ ذكر الريح في كتاب الله جاء في تسعةَ عشرَ موطناً ، وفق التقسيم الخماسيِّ الذي نرتضيه في هذا الذِكْر ، وهو على النحو الآتي :

الحالة الأولى : كونها عذاباً أليماً .

جاء هذا في سبعة مواطن ، تذكر العذابَ في مجيء هذه الريح لمن أرسلت إليه

(١) ظ (جامع البيان) الطبري (٢٠ / ٢١٦) .وفي الحديث « نُصرت بالصَّبا وأُهلكت عادٌ بالدَّبُور » أخرجه البخاري ، حديث رقم (٩٨٨) ، ومسلم حديث (٩٠٠) .

(٢) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق(٩٤٦) عن ابن عباس موقوفاً بسند صحيح .قاله الألباني في السلسة الضعيفة الضعيفة

(١٢ / ٢٢٣) في تعليقه على حديث (٥٦٠٠) .

(٣) (تفسير الشعراوي) الشعراوي (٩ / ٥٧٤٦) .

نكالاً وجزاء . وذُكر العذابُ الأليم تصريحاً في آية الأحقاف[١] في ذكر عادٍ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾ . قيل إنّهم « أول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من رحالهم ومواشيهم يطير بين السماء والأرض مثلَ الريش دخلوا[٢] بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فجاءت الريح ففتحت أبوابهم ومالت عليهم بالرمل فكانوا تحت الرمل سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً لهم أنين ، ثم أمر الريحَ فكشفت عنهم الرملَ وطرحتْهم في البحر فهو قوله فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم »[٣] ، وقد رأوا هذا العارضَ وهو السحابُ في بعض أقطار السماء عشيّاً ، ثم يستوي في الصباح ، ويقترب بعضه من بعض فيعرض في بعض أرجاء السماء[٤]فكانت عذاباً تدمِّر كلَّ شيء أُرسلت بهلاكه ؛لأنّها لم تدمِّر هوداً ومن معه من المؤمنين[٥] . والآية مسوقةٌ لتخويف كفّار مكة[٦] فقد يجيئهم ما جاء هؤلاء إن استمروا في تكذيبهم ، فيرسَلُ عليهم ريحٌ فيها عذاب أليم

وقد وقع العذابُ بهذه الريح في حقِّ عادٍ من حيث يشعرون به[٧] عارضاً مستقبلَ أوديتهم وقال لهم نبيُّهم بل هو ما استعجلتم به ، ولكنهم لا يصدِّقون! وحلَّ العذابُ بقوم نوح وهم ينظرون وكذلك فرعون وقومه ، وليس كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا

(١) (الأحقاف) (٢٤ – ٢٥) .
(٢) لعلّه (فدخلوا) .
(٣) (الدر المنثور) السيوطي (١٣ / ٣٣٨) .
(٤) ظ (جامع البيان) الطبري (٢٢ / ١٢٧) .
(٥) ظ (المرجع نفسه) (٢٢ / ١٢٩) .
(٦) ظ (مفاتيح الغيب) الرازي (٢٨ / ٢٦ – ٢٧) .
(٧) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (١٤ / ١٦٦) .

السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[١] فقد هدَّدهم هنا باستفهام التعجيب من استرسالهم في العناد ؛ فقد كانوا بآيات الله يجحدون وقد أنذرهم نبيُّهم هود أنْ يأتيَهم عذابٌ من السماء ، ولم يذكر القرآن لهود آياتٍ سوى هذه النذارة[٢] . وكان ذكر الريح وعذابها الأليمِ هنا في سورة الأحقاف تهديداً للمشركين المكذِّبين بالقرآن والحُجَج المتقدّمة عن ذكر قصّة عاد ، فذكر لهم مثالاً يشبه حالَهم[٣] تسليةً للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام . وهم في سياق الآيات طلبوا الفصلَ بينهم وبينه في بيان صدقه أن يأتيَهم بما يعدُهم إن كان من الصادقين ؛ وهذا يقتضي الفورَ وطلبَ التعجيلِ للدلالة على الصدق فطلبوه منه؛ لأنّه واسطةٌ بدعاء الله أن يعجّلَه – وهذا من عنادهم – أو قالوه تهكُّما به أي إن كنت تستطيع فافعل ؛ لذا كان طلب التعجيل هو ما أجابهم به (مَا اْستَعجَلْتُمْ بِهِ) وصارحهم بأنّ العلمَ عند الله . فأصابتهم السنين والقحط ؛ ولذا لما رأوا العارضَ قالوا : هذا عارضٌ ممطرُنا دلالةً على أنّهم بحاجة إليه ، وقد رأوا عذابَهم بما حملته الريح[٤] عذاباً أليماً لهم .

« وجعْلُ العذابِ مظروفاً في الريح مبالغةٌ في التسبُّب لأنّ الظرفيّةَ أشدُّ ملابسةً بين الظرف والمظروف من ملابسة السَّبب والمسبِّب »[٥] .

وقال ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾[٦] فهذا بأمر ربها ، فقوله ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ حالٌ من ضمير (تدمِّر) تقريباً لصورة تدميرها كلّ شيء ، أي تدميراً عظيماً عجيباً ؛لأنّ

(١) (النحل) (٤٥) .
(٢) ظ (المرجع نفسه) (٢٤ / ٢٥٨) .
(٣) ظ (المرجع نفسه) (٢٦ / ٤٤) .
(٤) ظ (المرجع نفسه) (٢٦ / ٤٧ – ٤٩) .
(٥) (المرجع نفسه) (٢٦ / ٥٠) .
(٦) (الأحقاف) (٢٥) .

الله خالقَها أمرها وسخّرها ، فالباء سببيّة[١] .

وما جاءهم من العذاب – تعجيلاً – هو كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴾[٢] وكقوله عنهم : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٣] .

وياله من تدمير مهولٍ يوم تَقْلِبُ الريحُ عليهم كلَّ شيء ، وتهلكهم ، وتدمِّر كلَّ شيء بأمر خالقها ومصرِّفها ، وهو « عموم يراد به الخصوص »[٤] . والعذاب من جهتين : حسّيّة ومعنويّة ، فالحسّيّة ظاهرةٌ. والمعنويّةُ أنّهم انتظروا العذابَ متهكِّمين برسولهم ، ووجدوا السحابَ بعدها وهو مظنّة الخير والمطرِ والرزق فكانت عقوبةً بالخيبة فيما ظنّوه، وعوقبوا بخلاف قَصْدِهم وأمانيهم ، فكان العارضُ الذي عَرَضَ في السّماء عذاباً أليماً عليهم[٥] .

ومن التهكُّم بهم أنّهم حين قالوا : هذا عارضٌ جاءهم الجواب : بل وما بعدها إضراباً عن قولهم[٦] ، وأخبر أن فجاءةَ العذابِ قد محقتْهم فلا مناصَ لهم ولا سبيل !

وهذه العقوبة جاءتهم بعد هذا التكذيبِ الذي أطلقوه بالإنكار والاستكبار « ولما كان ذلك معناه تكذيبه ، زادوه وضوحاً بقولهم معبرين بأداة الشكِّ إشارةً إلى أنّ صدقَه في ذلك من فرض المحال (إن كنت) أي كما يقال عنك »[٧] .

فدهَمَهُمْ عذابُ الريحِ الأليمُ الذي كان إتيانه قريباً من استعجالهم ؛ ولهذا جاء بالفاء (فلما رأوه) وهذا فيه بيانٌ لعظيم جهلهم بجهلهم في المحسوسات. وجهلُهم به قد امتدَّ

---

(١) ظ (المرجع السابق) (٢٦ / ٥٠) .
(٢) (الملك) (٢٧) .
(٣) (الأنفال) (٣٢) .
(٤) (التسهيل لعلوم التنزيل) ابن جزيء (٢ / ٣٣٦) .
(٥) ظ (تفسير ابن عرفة) محمد بن عرفة (٢ / ٦٠٤) .
(٦) ظ (البحر المحيط) أبو حيان (٨ / ٦٤) .
(٧) (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) البقاعي (٧ / ١٣٥) .

حتى واقَعَهم العذاب ، ومن جهلهم أنّهم أشاروا بأداة القرب (هذا) دلالةً على أنّهم في غاية التمعّن بالجهل .

وصوّرت الآيةُ هذه الريحَ تصويراً دقيقاً بأنّ فيها عذاباً أليماً ، وأنها تدمّر كلَّ شيء بأمر ربِّها وهذان وصفان لها ، وقد تكونان استئنافاً ، ونُسب تأثيرُها إلى ربِّها لا إلى ذاتها ، وأشار إلى أنه لم تُرَ إلاّ مساكنُهم فانطبقت العبارةُ بهذا على المعنى ، وعبَّر بالإصباح على مطلق الكونِ والمصيبةُ فيه أعظم فلم يبقَ منهم ديار ولا نافخ نار[١] .

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : ما أرسل الله عزّ وجلّ على عاد من الريح إلاّ قدر خاتمي هذا . ونزع خاتمَه[٢] .

فسبحان من جعلهم كأمسِ الدابر ، إنّه على كلِّ شيء قدير ، وهو الذي يأمر خَلْقه فيستجيب له جندُه ، «وهي الحقيقة الكونية التي يحفل القرآن بإشعارها للنفوس . فهذا الوجود حيّ . وكلّ قوّة من قواه واعية . وكلّها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلّف به من لدنه»[٣] . وعذابهم تهديدٌ لمن لَفَّ لَفَّهم وسار على تكذيبهم ؛ لذا قال ربُّنا :﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[٤]

ووصَفَها في العذاب بأنّها (صرصر) فجاءت منصوبةً – صرصراً – في موطنين ومجرورةً على النعت مرّة ، وجعلها ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾[٥]و﴿ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾[٦] ، ووصفها بقوله ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[٧] .

---

(١) ظ (المرجع نفسه) (٧ / ١٣٦ – ١٣٧) .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/٢٦) ، وأبو نعيم (٧ ١٣١). وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٤١٧): ضعيف.

(٣) (في ظلال القرآن) سيد قطب (٦ / ٣٢٦٧) .

(٤) (الأحقاف) (٢٥) .

(٥) (فصلت) (١٦) .

(٦) (القمر) (١٩) .

(٧) (الحاقة) (٦) .

وقد وجّه هذه التسميةَ بعضُ أهل العلم بأنّها شديدةُ الهبوب ، وقيل الباردةُ، وقيل التي لها صوتٌ شديدٌ قويّ « والحقّ أنّها متصفة بجميع ذلك فإنّها كانت ريحاً شديدة قوية لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم ، وكانت باردةً شديدة البرد جداً كقوله تعالى ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ أي باردة شديدة ، وكانت ذاتَ صوت مزعجٍ، ومنه سُمّي النهر المشهور ببلاد المشرق صرصراً لقوة صوت جَرْيه »[١] .

وكان هذا في أيام نحسات متتابعات[٢] سبع ليالٍ وثمانية أيام ، وابتُدئوا العذابَ في يوم نحسٍ عليهم ، ثم استمرّ بهم هذا النحسُ والعذابُ الأليم؛ ولهذا قال في تصويرحالهم: ﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾(٣) ومن شدّتها أنها ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾(٤)« فترفعهم إلى جو السماء ، ثمّ تدفعهم بالأرض فتهلكهم»(٥).

ونَحِسَات لغةُ مَنْ قال نَحِس[٦].وهذه الصَّرْصَرُ هي المقصودةُ بصاعقةِ عادٍ في كتاب الله[٧] .

والصِّرُّ – بالكسر– والصِّرَّةُ شدّةُ البرد ، وقيل هو البرد بعامّة ، وريحٌ صرصرٌ شديدةُ البرد جدّاً ، يُقال من الصِّرِّ وهو البرد ، ويُقال من صرير الباب والصَّرَّةِ وهي الضجَّة[٨] الضجَّة[٨] كما قال تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾[١] .

---

(١) (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير (١٢ / ٢٢٦) .
(٢) ظ (المرجع نفسه) (١٢ / ٢٢٦) .
(٣) (فصلت) (١٦) .
(٤) (القمر) (٢٠) .
(٥) (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) السعدي (١ / ٨٢٦) .
(٦) ظ (معاني القرآن) الأخفش (٤٦٥/٢).
(٧) ظ (أضواء البيان) الشنقيطي (٧ / ١٧) .
(٨) ظ (لسان العرب) ابن منظور . مادة (صرر) (٤ / ٢٤٢٩) .

ويدلّ هذا على شدّتها وقوّتها وعظيم صوتها كما أسلفنا ، فسبحان العليم القدير !

فالتعبير بأنّها (صرصر) هكذا بتضعيف عينها مبالغةٌ في وصف شدّتها وأصله صَرَّ أي صاح[٢] ، ووصْفُها بالنحس « لأنها لم يحدث فيها إلا السوءُ لهم من إصابة آلام الهَشْم المحقَّقِ إفضاؤه إلى الموت ، ومشاهدة الأموات من ذويهم ، وموت أنعامهم ، واقتلاع نخيلهم»[٣].والتعبير القرآني يتهكّم بهم هنا ، وكأنه يُذيقهم طعاماً يحتاجونه ويستطعمونه ويتلذَّذونه﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ﴾[٤]، « والإذاقةُ تخييلٌ من ملائمات الطعام المشبَّه به »[٥]. ونلاحظ هنا التعريضَ بمشركي مكّةَ كذلك في سورة القمر ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾[٦] .

وهي ريحٌ موصوفة بقوله: ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[٧]أي شديدةِ العصف « وأصلُ العُتُوِّ والعُتِيِّ : شدّةُ التكبّر ، فاستعير للشيء المتجاوزِ الحدَّ المعتادَ تشبيها بالتكبّر الشديدِ في عدم الطاعة والجري على المعتاد »[٨] ومن شدّتها – عياذاً بربِّنا – أنها تجعلهم كأعجاز النخل فقد كانوا يصطفّون آخذين أيدي بعضهم متداخلين في الشعاب والأودية ويحفرون الحفرَ ليحترزوا من هذا العذاب ، فكانت الريح تكبُّهم بعد نزْعهم وتدقّ رقابَهم، كأنّهم أعجازُ نخل[٩] لأنّها تقطّع الرؤوسَ منهم ، فيتساقطون أمواتاً

=

(١) (الذاريات) (٢٩) .
(٢) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (٢٤ / ٢٥٩) .
(٣) (المرجع نفسه) (٢٤ / ٢٦٠) .
(٤) (فصلت) (١٦) .
(٥) (المرجع نفسه) (٢٤ / ٢٦١) .
(٦) (القمر) (٢١) .
(٧) (الحاقة) (٦) .
(٨) (المرجع السابق) (٢٩ / ١١٦) .
(٩) ظ (تفسير النسفي) النسفي (٤ / ٢٩٨) .

جثثاً كأنّهم النخلُ المنخلع من أصوله بلا فروع وهذا من التهكّم بهم[١] ؛ إذْ كيف يكون هلاكُ هؤلاء بقوّتهم وعدّتهم وكثرتهم بعد تعزّزهم ومنعتهم وعنادهم ووثاقة خَلْقهم بما هو معدودٌ من ألطف الأشياء جسما وهو الهواء! فكانت تصرّهم وتجمع قوّتهم ببردها فتمنعهم التصرُّفَ في أبدانهم ، وتقطِّع قلوبهم بشدَّتها وصوتها ، فحقَّرهم لاستكبارهم ، حقّا « إنّها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة في أيام نحسٍ عليهم . وإنه الخزي في الحياة الدنيا . الخزيُ اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد»[٢]

وأبلغُ في الوصف أنْ يسِمَ العذابَ بالخزي لا أنْ يصفَهم به ، وهو من الإسناد المجازيِّ[٣] في قوله ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾[٤] وكيف يصنعون في في هذه الريح العصوفِ التي أرسلها اللهُ الذي ليس لقدرته دافع ، ولا لمشيئته مانع .

وكذلك فقد وصفها الله في كتابه بأنها (الريحُ العقيم) فقال : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾[٥] .

« فجعلها عقيماً إذا لم تُلْقِح ولم يكن فيها ماء ولا خير »[٦] .

فقيل سمّاها عقيماً[٧] لأنها لا منفعة فيها ولا مغنم ، وقيل لأنها أهلكتْهم وقطعَتْ دابرَهم .

وقوله ﴿ أرسلنا عليهم ﴾ دليل على أنّ هذه الجملة[٨] (أرسلنا) مفرّعة تفريع عقاب لا تفريعَ زيادةٍ للآيات . وقوله (ما تذر) جملة في محلِّ الصفة الثانية لريح ، أو حال

(١) ظ (نظم الدرر) البقاعي (٦ / ٥٦١) .
(٢) (في ظلال القرآن) سيد قطب (٥ / ٣١١٨) .
(٣) ظ (الكشاف) الزمخشري (٤ / ١٩٣) .
(٤) (فصلت) (١٦) .
(٥) (الذاريات) (٤١ – ٤٢) .
(٦) (الكشف والبيان) الثعلبي (٥ / ٣٣٦) .
(٧) ظ (تفسير البيضاوي) البيضاوي (٥ / ٢٤٠) .
(٨) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (٩ / ٦٩) .

، وهو نوع من الارتقاء[١] في كشف مضرّةِ هذه الريح؛ لأنها تأتي بأضرار عظيمة لا ينجون منها .

وقد « وصفت بالعقم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم ، فالعقيم بمعنى المعقم أو العاقم وفيه استعارة تبعيّة . شبّه إهلاكهم وقطع دابرهم بأعقام النساء اللاتي لا يلدن ولا يعقِّبْن ثم أطلق المشبّه به على المشبّه، واشتقّ منه العقيم ، أو وصفت به لأنها لم تتضمّن خيراً ما »[٢] ، فكأنّه فكأنّه بهذا شبّه عدم تحقُّق المنفعة بعقم المرأة ، ووصْفُها بالعقم قَطْعٌ لرجاء أيِّ راجٍ لأنّها« ريحُ الإهلاك والعذاب»[٣] .

ثمّ إنّه وصف هذه العقوبة وجعلها بعد استعمال حرف الجر (على) مضافاً إلى ضمير المهلَكِين ، و(على) أقوى في هذا السياق من (إلى) ، وتكون (على) في غالب استعمالاتها القرآنية في الجزاءِ والعقوبات الأليمة ، وفيها استعلاء دالٌّ على الشدَّة والقوّة[٤] .

وهذا فيه بيان لقدرة الله على كل شيء ، « ولا مكان في مثل هذه المواضع للاعتراض السطحيّ الساذج ، بالقول بأنّ الريح تجري وفق نظام كوني ، وتهبّ هنا أو هناك تبعاً لعوامل طبيعية . فالذي يجريها وفق ذلك النظام وتبع هذه العوامل هو الذي يسلِّطها على من يشاء عندما يشاء وفق تقديره وتدبيره »[٥] .

وقد عاقبهم الله بهذه الريح العقيم ، وأصل العُقْم اليُبْسُ[٦] المانع من قبول الأثر ، وداءٌ عُقَامٌ أي لا يقبل البرءَ والشفاء ، والريح العقيم قد تكون بمعنى (فاعل) فلا تلقح سحاباً ولا شجراً ، وقد تكون بمعنى (المفعول) كالعجوز العقيم ، فلا تقبل الأثر؛ ولذا

---

(١) ظ (المرجع نفسه) (٢٧ / ١١) .
(٢) (روح البيان) إسماعيل حقي (٩ / ١٤٥) .
(٣) (فتح القدير) الشوكاني (٥ / ١٢٠) .
(٤) ظ (لمسات بيانية لسور القرآن الكريم) د. فاضل السامرائي (١ / ١٨) .
(٥) (في ظلال القرآن) سيد قطب (٦ / ٣٣٨٤) .
(٦) ظ (مفردات القرآن) الراغب الأصفهاني (١ / ٥٧٩) مادة (عقم) .

لا تعطي ولا تؤثِّر ويومٌ عقيمٌ لا فرح فيه .

والريح العقيم هي « الدبور ، لا تلقح وتقشع السحاب »[١] ، وهذه استعارة بديعة ، فهي ريح لا تتكشف عن عواقب نفع ، كالمرأة لا يرجى ولدُها ، ولا ينمي عددُها[٢] ، والمستعار منه أيٌّ منتجة للولد والحياة والمستعار له الريح ، واللفظ المستعار (العقيم) ، والوجه المشترك عدم النتاج وهو شيء معقول[٣] ، وقد حسَّنتْ هذه الاستعارةُ المكنيّة من الدلالة وأثَّرت في المعنى ؛ إذْ كشفت الشدَّةَ والاستئصالَ والقوَّة في هذه الريح العقيم المرسلة عليهم .

ووصَفَها بالقاصف كذلك فقال : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾[٤] وهذا من عجائب قدرته وبدائع حكمته، فهي ريح تجري على وفاق حكمِ الله وأمرِه ، فهي قاصفٌ (عاصفٌ)[٥] . فالقرآن يهدّد المعرضين الذين اعترفوا بتوحيد الله في البحر ثم خرجوا إلى البرِّ بأنّه قادرٌ على أن يعيدَهم مرةً ثانية في البحر فيقصفَ الصواري بهذه الريح ، ويغرق المراكب فتكون هذه الريحُ القاصفُ العاصفُ عذاباً أليماً عليهم ، ولا يجدون تبيعاً ولا نصيراً يَتْبع حكمَ اللهِ بشيء فالتبيع هنا في معنى تابع[٦] .

فهي ريح تبيِّن كمالَ إلهيةِ ربِّنا ونفاذَ قدرته ، تقصف مَنْ في البحر فتغرقه كما قال أبو تمام :

---

(١) (إيجاز البيان عن معاني القرآن) النيسابوري (٢ / ٧٦٦) .

(٢) ظ (تلخيص البيان في مجازات القرآن) الشريف الرضي (٣١٤) .

(٣) ظ (إعراب القرآن وبيانه) محيي الدين درويش (٣ / ٤٦٣) .

(٤) (الإسراء) (٦٩) .

(٥) ظ (الدر المنثور) السيوطي (٩ / ٣٩٩) .

(٦) ظ (معاني القرآن) الفراء (٢ / ١٢٧) .

إنَّ الرياحَ إذا ما أعصَفَتْ قَصَفَتْ عَيْدانَ نجدٍ ولم يَعْبَأْن بالرَّتَمِ[١]

وهذا الاستفهام الذي جاءت به الآية توبيخيٌّ يوبَّخون به على إعراضهم عن شكر مستحقِّ الشكر ، وعودِهم إلى الكفر والصَّلفِ والعناد !

ونجد التعبير القرآنيَّ الدقيقَ يستعمل (ثمّ) العاطفةَ مع التراخي، وهو ارتقاءٌ في التهكّم بهم وتهديدهم ، وكأنهم لا يجدون نصيراً ولا مخرجاً من عذاب ربِّهم إذا أراده ؛ لأنه يهدِّدهم به غرقاً ولا يوجد لهم نصيراً والغريق قد يجد منقذاً له[٢] . وهذا كقوله تعالى :﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾[٣] ، وكونهم لا يجدون تبيعاً كقوله : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾[٤] وهذا هو المعنى الذي يلقيه استعمالُ هذه اللفظةِ (قاصفاً) بشدَّته في هذا السياق ، فالقَصْف الكسرُ ، وقَصَفَ الشيءَ يَقْصِفُه قَصْفاً كسره ،وأَقْصَفَ وانْقَصَفَ وتَقَصَّفَ انكسر ، وقَصَفْتُ العودَ أي كسرْته ، وريحٌ قاصفٌ وقاصفة شديدة والريحُ العاصف والقاصف هي الريح في البحر ، والصرصرُ والعقيمُ الريحُ في البرِّ حين تكون عذاباً فيهما[٥] . وكأنّ السياقَ هنا يستجيش وجدانَ هؤلاء المعاندين ليكفّوا عن كفرهم وبُعْدِهم عن فطرتهم حين يحذِّرهم هذه القوّةَ والسَّطْوة .

فالقدير يقول إنّا « نفعل ما نفعل بهم ، ثم لا تجد أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منّا ودَرَكاً للثأر من جهتنا »[٦] فسبحان العليم القدير !

وذكرها عذاباً لكفار قريش ومن أعانهم من الأحزاب فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[٧] . وقد تحدّث أحدُ الصحابة للتابعين عن هذه الغزوة فقالوا لو

(١) البيت في ديوانه (٢ / ١٤٢) وهو من البسيط التام .
(٢) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (١٥ / ١٦٣) .
(٣) (يس) (٤٣) .
(٤) (الشمس) (١٥) .
(٥) ظ (لسان العرب) ابن منظور (٥ / ٣٦٥٤) مادة (قصف) .
(٦) (الكشاف) الزمخشري (٢ / ٦٨٠) .
(٧) (الأحزاب) (٩) .

شهدناها لفعلنا وفعلنا ، فقال لهم لا تمنّوا ذلك[١] ، لقد رأيتنا ليلة ليلة الأحزاب ونحن صافّون قعود ، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا .

وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتتْ علينا قطّ أشدّ ظلمة ولا أشدُّ ريحاً في أصواتٍ ريحُها أمثالُ الصواعق ، وهي ظلمة ما يرى أحدُنا إصبعَه ! فكان مشهداً عظيماً في ذلك اليوم .

جاءت الريح فكانت عذاباً على الكافرين في وقت الجهد والشدّة والجوع والخوف والظلمة وكان المؤمنون لا يحسبون أن النصر سيكون بالملائكة والريح « وبسبب تلك الريح وتلك الجنود ردَّهم بغيظهم وكفاكم القتال »[٢] .

وذكْرُ الريح هنا مع جند السماء – الملائكة – وأنّ الإرسالَ كان بأمر الله ناسبه سياقُ ما يُشير إلى عظمة الذات الإلهية (أَرسلْنا) بالاسم الجليل وكذلك ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[٣] .

والإشارة إليه[٤] لتربية المهابة في النفوس ، وإدخال الروعة والإجلال؛ ولذا قال بعدها بآيات ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ ﴾[٥] .

وذكْرُ الريح خاصّةً في هذا الموطن ؛ لأنّها كانت رحمةً بالمؤمنين بهذا الدليل الشهوديّ[٦] لهم بضرب المثل بالنعمة عليهم في أعظم وقائعهم في حروبهم وأشدّ ما دهمهم في كروبهم ، فقد كانوا في رهبة عظيمة ، ناسبَها في هذا السياق القرآنيّ أن يعود إلى مظهر العظمة فيقول (أرسلْنا) بعد أن رأينا عجزَكم عن لقائهم ، فقد أمرناكم وألهمناكم بالخندق ، فلما طال ليلُ عدوّكم ؛ أرسلْنا بمالنا من العظمة هذين

(١) ظ (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير (١١ / ١٢٧) .
(٢) (أضواء البيان) الشنقيطي (٦ / ٢٣٥) .
(٣) (الأحزاب) (٩) .
(٤) ظ (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) أبو السعود (٧ / ٩٩).
(٥) (الأحزاب) (٢٥) .
(٦) ظ (نظم الدرر) البقاعي (٦ / ٧٨) .

الجنديين

(الريحَ والملائكةَ).

وقد قال أحدُ الصحابة يومها : كانت معي يومَ الخندق ثُرْسٌ وكان فيها حديد فضربتْها الريحُ حتى وقع بعضُ ذلك الحديد[١] .ونكّرها السياقُ لبيان عظمتها ، وعظم الحال التي جاءت فيه .. ريح باردة في ليلة شاتية وملائكة ، ورعبٌ في القلوب ! حتى كان بعضُهم يلتزق ببعض من خوف الخيل في جوف الليل[٢] !

وهذا السياق التعبيريّ بهذا الوصف المهولِ الدقيق ناسبه ختامُ الآية، فالله علم التجاءهم إليه ورجاءهم فضلَه ونصْرَه ، فنصرهم على الأعداء عند الاستعداء[٣] ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[٤] .

« وهكذا يرسم في هذه البداءة المجملة بدءَ المعركةِ وختامَها ، والعناصر الحاسمة فيها .. مجيء جنود الأعداء . وإرسال ريح الله وجنودِه التي لم يرها المؤمنون . ونصْر الله المرتبط بعلم الله بهم ، وبصره بعملهم »[٥] حتى قال أحد المشركين يومها حين رأى رأى آثارَ الريح والملائكة في عسكرهم ، من سَفْي التراب وقلع الأوتاد ، وقطْعِ الأطناب ، وإطفاء النيران ، وإنكفاء القدور ، وقذْف الرعب ، وهيجان الخيول : أمّا محمّدٌ فقد بدأكم بالسِّحْر فالنجاءَ النجاء[٦] !

الحالة الثانية / كونها من جند سليمان – عليه السلام – :

جاء هذا في ثلاث آيات بيِّنات – كما سبق ذكره – في سور (الأنبياء) و (سبأ) و (ص)

أما أُولاها فذكرت هذا التكريمَ له بجند الله هكذا : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي

(١) ظ (الهداية إلى بلوغ النهاية) مكي بن أبي طالب (٩ / ٥٧٩١) .
(٢) ظ (مفاتيح الغيب) الرازي (٢٥ / ١٩٩) .
(٣) ظ (المرجع السابق) (٢٥ / ١٩٩) .
(٤) (الأحزاب) (٩) .
(٥) (في ظلال القرآن) سيد قطب (٥ / ٢٨٣٦) .
(٦) ظ (الكشاف) الزمخشري (٣ / ٥٢٦) .

بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾[١] ، فهي ريحٌ شديدة تسير جاريةً بأمره إلى أرض الشام[٢] .

وعُصُوْفها شدَّةُ هبوبِها[٣] ، وعبَّر عنها بأنها (عاصفة)، وعبّر عن الريح حيناً بأنها (عاصفٌ)[٤] ؛ لأنّك تكون حينها قدْ ردَدْته إلى اللّفظ تذكيراً أو إلى المعنى تأنيثاً .

وقد علم الله أنّ هذا التكريمَ سيقود سليمان إلى الشكر والخضوع لربِّه ؛ ولذا خُتمت الآية بقوله ﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ وهذا منها[٥] .

والمناسبة في هذا أنّ تسخير الريح لمصلحته أثرٌ من آثار علم الله بما لا يعلمه سليمان ، وما هو منها لائقٌ بمصلحته يسخِّره اللهُ العليم له بحكمته[٦]وهي تجري بأمره لما فيه المصلحةُ العامّةُ من حمل الجنود ونقل البضائع ،وترجع بالخير إلى فلسطين ، فوقع في الكلام بذكر قوله (بأمره) اكتفاءٌ اعتماداً على القرينة[٧] ، وقد صرَّح بهذا في في آية أخرى ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾[٨] وهذا من إكرام الله لمن يشاء من عباده ، فاللام في (ولسليمان) لامُ التقوية[٩] إذْ حذف الفعل (سخّرها) لدلالة ما قبله في منَّة الله على داود – عليهما السلام – فقرن مفعول الأول بلام التقوية والاحتياج إلى لام التقوية عند حذف الفعل أشدُّ من الاحتياج إليها عند تأخير الفعل عن المفعول .

---

(١) (الأنبياء) (٨١) .
(٢) ظ (الدر المنثور) السيوطي (١٠ / ٣٣٢) .
(٣) ظ (جامع البيان) الطبري (١٨ / ٤٨١) .
(٤) (جاءتها ريحٌ عاصفٌ) (يونس) (٢٢) .
(٥) ظ (معالم التنزيل) البغوي (٥ / ٣٣٥) .
(٦) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (١٧ / ١٢٤) .
(٧) ظ (المرجع نفسه) (١٧ / ١٢٣) .
(٨) (سبأ) (١٢) .
(٩) ظ (المرجع نفسه) (٢٢ / ١٥٨) .

وانتصابُ (عاصفةً) هنا على الحاليّة من قوله : (الريحَ) ، فشأنها العصوفُ[١] .

.

وتسخيرها تذليلها له ولطاعته إجابةً لدعوته ربَّه أن يؤتيَه مُلْكاً لا يؤتاه أحدٌ من العالمين وجاء أن التسخير يقصد به إدامةُ التذليل[٢] .

ومن هذا التسخير أنها تتّجه حيث يأمرها من أقطار الأرض ، وذِكْرُ الأرض التي باركها الله لأنّ مسكنه فيها وهي الشام . فهي تجري بأمره ذهاباً حيث أصاب وأراد ، وإياباً إلى مكان سكناه ، فانفكّتِ الجهةُ فزال الإشكال[٣] .

وهنا لطيفة تعبيريّةٌ دقيقة ، فقد عبّر هنا بقوله ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ ، وقال قبلها في (داود – عليه السلام –) : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[٤] فالتسخير لداودَ كان بتسبيح الجبال والطير معه لله وحده ، فهي في حكم المصاحب له تسبيحاً لا أنها تخدمه[٥] . أما الريح فكانت مسخّرة لسليمانَ خاضعةً لأمره ، فهي مطيّةٌ له وذَلُولٌ تجري بأمره .

وصاحبُ مفاتيح الغيب يقف مع هذا وقفة نفيسة فيقول : « يحتمل أن الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوعُ شرفٍ فما أضيف إليه بلام التمليك أمّا الريح فلم يصدر عنه إلاّ ما يجري مجرى الخدمة فلا جرم أضيف إلى سليمانَ بلام التمليك »[٦] .

وهي قدرةٌ إلهيّة عظيمة طليقةٌ لا تُسأل كيف ؟ وما عُلم من نواميس الكون التي خلقها الله وأوجدها لنا إلاّ قليل ، ولكنّها تظهر حينما يُؤْذن لها بالظهور[٧] .

والآية الثانية من سورة (سبأ) هي التي ذُكرتِ الريح فيها جنداً من جند سليمان –

---

(١) ظ (التبيان في إعراب القرآن) العكبري (٢ / ٩٢٤) .
(٢) ظ (روح المعاني) الآلوسي (١٢ / ١٩٤) .
(٣) ظ (أضواء البيان) الشنقيطي (٤ / ٢٣٥ – ٢٣٦) .
(٤) (الأنبياء) (٧٩) .
(٥) ظ (التفسير القرآني للقرآن) د. عبد الكريم الخطيب (٩ / ٩٣٠) .
(٦) (مفاتيح الغيب) الرازي (٢٢ / ٢٠١) .
(٧) ظ (في ظلال القرآن) سيد قطب (٤ / ٢٣٩١) .

عليه السلام – يقول تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾[١] . قال قتادة : تغدو مسيرة شهر وتروح مسيرة شهر في يوم واحد ، أي مسيرها شهران في يوم[٢] . وإيراد هذا لسليمان فضلاً كما لأبيه من الفضل ، هو لمناسبة جليلة بأنّ « أولئك الكفار أنكروا البعثَ لاستحالته عندهم ، فأُخبروا بوقوع ما هو مستحيل في العادة مما لا يمكنهم إنكاره ، إذْ طفحت ببعضه أخبارهم وشعراؤهم »[٣] .

قال الحسن : عقر سليمان الخيل على ما فوّتته من صلاة العصر ، فأبدله الله خيراً منها وأسرعَ الريحَ تجري بأمره[٤] .

فهي كرامة له أنْ تُجنَّد له الريحُ وتسخَّر « والتسخير الإلجاء إلى عمل بدون اختيار وهو مستعار هنا لتكوين أسباب صرف الريحِ إلى الجهات التي يريد سليمان توجيهَ سفنِه إليها لتكون معينةً سفنَه على سرعة سيرها ، ولئلاّ تُعاكسَ وجهةَ سفنِه »[٥] . وهي وهي ريحٌ مخصوصةٌ لسليمان – عليه السلام – لا هذه الرياح ، ويدلّ عليه أنها لم تُقْرأ هاهنا بجمع (الرياح)[٦]

فغدوُّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ هكذا .. مجازَ مختصِرٍ مضمرٍ فيه غدوُّها مسيرةُ شهرٍ ورواحُها مسيرةُ شهرٍ ، فضلاً من الله لسليمانَ – عليه السلام[٧] – .

أمّا الآية الثالثة ففي سورة (ص) . يقول تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾[٨] ثم قال بعد منٍ أخرى عليه : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ

(١) (سبأ) (١٢) .
(٢) ظ (الدر المنثور) السيوطي (١٢ / ١٦٩) .
(٣) (البحر المحيط) أبو حيان (٧ / ٢٥٢) .
(٤) ظ (المرجع نفسه) (٧ / ٢٥٣) .
(٥) (التحرير والتنوير) ابن عاشور (٢٣ / ٢٦٤) .
(٦) ظ (مفاتيح الغيب) الرازي (٢٥ / ٢٤٨) .
(٧) ظ (مجاز القرآن) أبو عبيدة (٢ / ١٤٣) .
(٨) (ص) (٣٦) .

بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[١] . وهنا لابد أن نوفِّقَ بين التعبيرين : أنّها (عاصفة) و(رخاء) ! ولا تعارض بين آي الكتاب .

وجوابُ أهلِ العلم عن هذا من عدَّة أوجه :

الوجه الأول : أنها كانت في وقتٍ عاصفاً وفي وقتٍ رخاءً ؛ بحسب رغبة سليمانَ وأمرِه وإرادته بعلمِ الله الذي يجريها على ما يريد سليمان ، فتكون ليّنةً لا تزعزع عليه ولا تمتنع عن أمره ، أو عاصفاً حسب حاجته[٢] .

والوجه الثاني : أنّها قويّةٌ عاصفة لها وصفُ قوّةِ العصفِ لكنّها لا تعصف به ، بل هي رخاءٌ ليّنةُ الهبوبِ لمّا جَرَتْ بأمره ، فصارت طيّبة رخاء لذيذة كالنسيم[٣] ، فهي رخاءٌ في نفسها عاصفةٌ بعملها . فإذا مرَّتْ بكرسيّه وحاجته أبعدتْ به لحاجته ، وإذا حملته كانت رخيَّةً طيِّبة .

والوجه الثالث : أنها رخاءٌ في الذهاب ، عاصفٌ في الرجوع للحاجة[٤] .

والوجه الرابع للجمع:أنها تلين إذا حملتْه ، وتشتدّ إذا رفعتِ البساطَ به وبجنده[٥]

ولعلّ الوجهين الأخيرين راجعان إلى الوجه الأول بحسب المراد والحاجة وأمر سليمان ؛ لأنها لا يمكن أن يستمرّ عصفُها على وجه واحد أو رخاوتها على وجه واحد[٦] .

---

(١) (ص) (٣٩) .

(٢) ظ- في هذا - :(الكشاف) الزمخشري (٣ / ١٣٠) و(مفاتيح الغيب) الرازي (٢٦ / ٢١٠) و(كشف المعاني في المتشابه من المثاني) بدر الدين بن جماعة (١ / ٢٥٧) و(روح المعاني) الآلوسي (١٢ / ١٩٤) و(تفسير البيضاوي) البيضاوي (٤ / ١٠٣) و(التحرير والتنوير) ابن عاشور (٢٣ / ٢٦٥) و(فتح القدير) الشوكاني (٤ / ٥٧١) و(أضواء البيان) الشنقيطي (٤ / ٢٣٥) .

(٣) ظ- في هذا - :(الكشّاف) الزمخشري (٣ / ١٣٠) و(مفاتيح الغيب) الرازي (٢٦ / ٢١٠) و(التسهيل لعلوم التنزيل) ابن جزيء (٢ / ٤٢) و(كشف المعاني في المتشابه من المثاني) ابن جماعة (١ / ٢٥٧) و(فتح القدير) الشوكاني (٤ / ٥٧١) .

(٤) ظ (التسهيل) ابن جزيء (٢ / ٤٢) .

(٥) ظ (المرجع السابق) (٢ / ١٤٢) .

(٦) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (٢٣ / ٢٦٥) .

وهذا كلّه بعلم الله وإرادته ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾[١] .

وهذا من بيان القرآن لقدرة الله على الأفعال الهائلةِ الغريبةِ على البشر؛ فالريح (عاصفةٌ) و(رخاءٌ) عاصفة بالنظر إلى شدّة هبوبها وعملها ، رخاءٌ بالنظر إلى لطفها بهم فلا يجدون لها مشقّة ولا عناء[٢] . وهو عطاءُ الله ﴿ فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٣] فهو (عطاؤنا)[٤] هكذا بإضافة العطاء إلى الذات الإلهية ، لتعظيم شأن المضاف لانتسابه إلى المضاف إليه فهو عطاءٌ وفضل عظيمٌ أعطيناكه ووهبناكه ، فنحن أهلُ العطاء والمَنّ . فسبحان العليم القدير !

الحالة الثالثة / (كونها آية للخلق في سياق الامتنان):

وجاء هذا في ثلاثةِ مواطنَ من كتاب الله :

أوّلُها قولُه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾[٥] ، فمن حُجَج الله وآياته للناس أنّه القادرُ على كلِّ شيء، فهذه السّفنُ الجاريةُ في البحر كالجبال هو الذي أجراها، وهو قادرٌ على ألاّ يُجْرِيَها، حين يُسْكِنُ الريحَ الجاريةَ بالسفن ، فتثبت في مواضعها بلا تقدُّم ولا تأخّر! فتظلّ راكدةً على ظهر البحر واقفةً لا تتحرَّك ، حُجَّةً على قدرة الله لكلِّ من صبر على طاعة الله ، وشكر نعماءه وأياديه ، أو فإنّه – سبحانه – يُوْبق هذه السفن بما كسبت ركبانُها من الآثام فيُهْلكُهنّ بالغرق إذا حرَّك هذه الريحَ بشدّة فهاجت أمواجُ البحر[٦]فالآيةُ تضع تصريفَ الريح هكذا

(١) (الأنبياء) (٨١) .
(٢) ظ (نظم الدرر) البقاعي (٥ / ١٠٢) .
(٣) (ص) (٣٩) .
(٤) ظ (التحرير والتنوير) (٢٣ / ٢٦٧) .
(٥) (الشورى) (٣٢ – ٣٤) .
(٦) ظ (جامع البيان) الطبري (٢١ / ٥٤٠ – ٥٤٢) .

طيّبةً رخاء تسير بالسفن وسط البحر، بأنّه آيةٌ دالّة باهرة على نعم الله على خلقه[١] ، وكيف يجري الهواء بقدر حاجتهم للسير فحسب ، وهي آيةٌ لكلِّ صبَّار في الشدائد ، شكورٍ في الرخاء ، فهو القادر على تحريك هذه الريح الطيبة لتكون قويّةً عاتية تُحيل السفنَ عن خطّها المستقيم آبقةً لا تسير إلى وجهة مرادة ولا إلى قَصْدٍ محمود! كما قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾[٢] .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾[٣] .

وهو مثال مضروب لهم بما تراه أعينهم في الآفاق ، وأنهم غير خارجين عن قبضة القدرة الإلهية ، فقد تحلّ بهم المصائب بما كسبوا ، فهي آية دالّةٌ على الحقِّ في هذه (الجواري) التي دَلّ ذِكْرُ البحر على أنّها السفنُ الجواري – صفة لمحذوف – وعَدَلَ تعبيرُ القرآن هنا عن (الفلك) إلى (الجواري) ؛ لأنّها موطن العظة والعبرة بجريها وتسخير البحر لذلك ، وشبَّهها بالأعلام وهي الجبال للدلالة على استيعابها لخلق كثيرين على ظهرها ، وهنا تكون منّةُ اللهِ أعظمَ ، وفضلُه أتمَّ[٤] .

والله قادر على إسكان الريح بقطع هبوبها وحركتها ، فإذا سكن التموُّجُ فلا ريح ولا حركة . وهذا الموطن فيه دلالة على أنّ لفظةَ الريح – كما أسلفنا – قد تُطْلق على ريح الخير فالقول بأنّ الريح للعذاب أغلبيٌّ لا مطّرد .

وذكْره للصبر والشكر؛ لأنّهما حالتا خوف ونجاة ، فالخوف داع إلى الصبر، والنجاةُ تدعو إلى الشكر ، ولا يفعلهما إلاّ مؤمن متدبِّر منتفع بالآيات[٥] .

ويلحق بالريح كلُّ القوى التي سخّرها اللهُ لعباده لتسيرَ بالسفن بعد زمن الخطاب

---

(١) ظ (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير (١٢ / ٢٨٣ – ٢٨٤) .

(٢) (الحج) (٦٥) .

(٣) (لقمان) (٣١) .

(٤) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (٢٥ / ١٠٥) .

(٥) ظ (المرجع نفسه) (٢٥ / ١٠٦) و(حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي) أحمد بن محمد الخفاجي (٧ / ٤٢٢) .

بالآيات من البُخَار والذرَّة وما يشاء بعد الآن لتحرّك هذه الجواري[١]

فهي نعمة (الريح) الطيّبة التي تجْري هذه السفنَ ، حتى الكبيرة العظيمة ذوات المحرِّكات لو سارت بقوّةٍ غيرِ الرياح فإنّ الرياح تؤثِّر فيها وفي سيرها ، بل قد تُلْجئ ربَّانَها إلى التوقّف لأنّها عند شدَّة الريح كتِبْنَةٍ صغيرة[٢] !

وأصل الكلام : إن يشأ يُسْكنِ الريحَ فيظْللن رواكدَ على ظهره ، إنّ في ذلك لآياتٍ لكلّ صبّار شكور . أو يرسلها (أي الريحَ) فيوبقهن[٣] ؛ لأنه قسيمُ (يُسْكن) فاكتفى هنا بالمراد لدلالة ما مضى عليه في السياق . وهذا خلق عجيب « من جهة أنّ الماء جسم لطيف شفّاف يغوص فيه الثقيل ، والسفن تَشْخص بالأجسام الثقيلة الكثيفة ، ومع ذلك جعل تعالى للماء قوّةً يحملها بها ويمنع من الغوص ، ثم جعل الرياح سبباً لسيرها ، فإذا أراد أن ترسو ، أسكن الريحَ ، فلا تبرح عن مكانها »[٤] .

ولمّا ضرب المثلَ العجيب بالسفن والريح قال بعدها : ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾[٥] !

والموطنُ الثاني قوله – سبحانه – : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[٦] فذكر الريح هنا في الآية في موطنين ، ذُكر فيهما الريحُ الطيبة والريحُ العاصف ثم بيّن حالهم فقال : ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

(١) ظ (في ظلال القرآن) سيد قطب (٥ / ٣١٥٩) .
(٢) ظ (بيان المعاني) ملا عبد القادر (٤ / ٤٨) .
(٣) ظ (تفسير البيضاوي) البيضاوي (٥ / ١٣٢) .
(٤) (البحر المحيط) أبو حيّان (٧ / ٤٩٧) .
(٥) (الشورى) (٣٥) .
(٦) (يونس) (٢٢) .

﴾[1].

فالله يذكر لهم آيتَه ونعمتَه ؛ إذْ كانوا في الفلك – وهذا تذكير بالاحتمال لهم – يسيرون فرحين مطمئنين في مراكبهم في البحر[2] ، حتى جاءت ريحٌ شديدة واغتلم البحرُ عليهم فظنّوا أنّهم هلكوا فدعوا الله ابتهالاً وتضرّعاً فلا صنم ولا وثن ! أنّهم إذا نجوا فلن يشركوا به أحداً بالعبادة ، كما أفردوه هنا بالدعاء ، فلما تحصَّلت لهم النجاةُ من الورطة بغوا بغير الحقِّ كأنْ لم يكن شيء ،ساروا بريح ليّنةٍ طيبة في هبوبها ، ثم جاءتها ريحٌ شديدةُ الهبوب[3] فذِكْرُ هذه النعمة والمنَّة آيةً للخلق ، كان بعد ذِكْرِ القاعدة العامّة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة بعد الضّراء فذُكرت هذه الحالة المؤيِّدة لهذه القاعدة ، وهي حالهم في البحر عند الخوف من الهلاك بعد اشتداده[4] .

والمعنى المراد هنا من هذه الحال والإشارة إليها : حتى إذا كنتم في الفلك جاءتها ريحٌ عاصف.وقوله : دعوا اللهَ جوابٌ لقوله ﴿ وظنّوا أنهم أُحيط بهم ﴾ وإنما قال (بهم) بعد أن قال أولَ الآية (كنتم) لجواز ذكر الغائب ثم مخاطبته عند عنايته وقصده بالكلام ، أو تخاطب ثم تجعله في لفظ غائب[5] .

والآيةُ هاهنا في موقع رشيقٍ جدّ الرشاقة[6] ، فما قبلها تمهيدٌ لها وإدماجٌ للامتنان وكأنّها تعاتبهم وتهدِّدهم ، فمستحقّ العبادة والوحدانيّة الذي تكفرون به وتشركون ، هو صاحب النعم عليكم في البلاء والسرّاء ، وفي كلِّ شيء له آيةٌ ولكنّكم تكفرون ! والآياتُ تُورَدُ عليكم فلا تغترّوا بالإمهال ، فإمهاله ليس رضا بكفركم ولا عجزاً عن أخذكم . وهو الذي يسيّركم في البرِّ والبحر – وهذا امتنانٌ منه – ولكنّكم تُخلُّون بواجب الشكر ، فهو يسيّركم برفق يناسبكم في البر والبحر على السواء !

---

(١) (يونس) (٢٣) .
(٢) ظ (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير (٧ / ٣٤٩ – ٣٥٠) .
(٣) ظ (تفسير البيضاوي) البيضاوي (٣ / ١٩٢) .
(٤) ظ (تيسير الكريم الرحمن) السعدي (١ / ٣٦١) .
(٥) ظ (معاني القرآن) الأخفش (٢ / ٣٤٢) .
(٦) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (١١ / ١٣٥ – ١٣٦) .

وما بعد (حتى) في الآية بدايةُ حالِ الضرَّاءِ والبلاءِ المحكيَّة ، بهذا النَظْم البديع في أفانين الكلام ، وهنا مع هذا الانتقال كان انتقالاً للحال والضمائر المستعملة في الخطاب كذلك من ضمائر الخطاب إلى الغَيْبة تلويناً للتعبير والأسلوب ؛ وكأنّ الآية تنتقل مما يخصّ أهلَ الإيمان إلى ما يخصّ المشركين حين يكفرون التفاتاً في الأُسلوب ، وتفنُّناً في الخطاب .

وهو خطابٌ بما يعلمونه ؛ لأنّ العربَ تعرف البحر ، فقد كانت قريش تذهب إلى اليمن في رحلة الشتاء وتركب البحر لهذا ، ووصَفَ بعضُ شعرائهم السّفنَ . كطرفةَ وابنِ كلثومَ في معلّقته ، والنابغة في داليّته .

والمقصود أنّ السرّاءَ تنتهي في وصف الآية عند مجيء الريح العاصف وهو غايةُ التسيير الهنيء المنْعَمِ به ، وحينها ينقلب السرورُ إلى بلاء . وهنا الإتيانُ بطِباق الإيجاب (ريح طيبة) و(ريح عاصف) بعد حتّى ؛ مما أشارت به الآيةُ إلى هذا الاختلاف في الحال ، والتبدّلِ في المآل .

وهذا يكشف لنا الحالة النفسيّة لهم في ذاك الموطن .

« وفي ذكر جريهن بريح طيبة ، وفرحهم بها إيماء إلى أن مجيء العاصفة حدث فجأة دون توقّع »[١] وكان حالُهم الفزع واللجوءَ إلى الدعاء والخلوص إليه . وجاء التعبيُر القرآنيُّ هنا بإذا الفجائيّةِ في جواب (لمّا) في الآية بعدها دلالةً على أنّهم تعجَّلوا بالبغي في الأرض بعد نجاتهم من الريح العاصف في البحر ومجيء الأمواج من كلِّ مكان ، وظنِّ الهلاك ! وهذا من اعتدائهم[٢] . والمراد بالبغيِ الشركُ هنا لا الإفسادَ في الأرض والفساد ؛ لأنّه أليقُ بالسياق ففيهم الحلماءُ وغيرُ الباغين على الآخرين ؛ ولأنه قال (على أنفسكم) بعد أن تمكّنوا من النجاة بدلالة قوله : (في

(١) ظ (المرجع السابق) (١١ / ١٣٧) .

(٢) ظ (المرجع نفسه) (١١ / ١٣٨) .

الأرض)[١] .

والتعبيرُ القرآنيُّ مال إلى التمثيل بالبحر وترك البرَّ ؛ لأنّ العَطَبَ بأحوال البحر أظهرُ ، والسيرَ فيه من أكبر الآيات البيّنات[٢] .

والتمثيل بالإحاطة بعد الريح العاصف جاء بصيغة المبنيِّ للمفعول[٣] (أحيط بهم) لأنّ المخوفَ من الهلاك من غير تعيين ، فكنايةً عنه عبّر بقوله (أُحيط) والعدوُّ إذا أحاط بخصمه أيقن بالهلاك ؛ لذا ناسب استعمالها

وهذا امتنانٌ منهم حين يتفكّرون في هذه الآية (الريح) وهم عنها غافلون، فهم لا يحسّون بنعمة ربِّهم على تهيئتها لتكون (طيّبة) إلاّ إذا (عَصَفَتْ) بهم ! وحينذاك « في وسط هذا الهول المتلاطم ، تتعرّى فطرتهم مما ألمّ بها من أوشاب ، وتنفض قلوبُهم ما ران عليها من تصوّرات وتنبض الفطرة الأصيلةُ السليمة بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه »[٤] .

وهو تذكير لهم بهذا المَنِّ وتسييرِ هذه الريح وتصريفِها فيما فيه مصلحتُهم وعدمُ عطبِهم وهو القادرُ على أن يبدّل الريحَ من (طيّبةٍ) إلى(عاصِفٍ) فسبحان العليم القدير !

وثالث هذه المواطن قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾[٥] وهذه الآية بعد بيان نعمة الله بإنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها . فالقرآن يخاطبهم مبيِّناً حقيقةَ نفوسِهم ، ممتنّاً عليهم مَنْ تكلّم به أنّه قادرٌ على أن يرسلَ ريحا باردةً مضرَّةً تفسد الزرعَ الذي سيرونه مصفرّاً بعد الخضرة ، وإنْ فعل ذلك فسيجدون ما سلف من النعمة[٦] !

---

(١) ظ (المرجع نفسه) (١١ / ١٣٨) .
(٢) ظ (نظم الدرر) البقاعي (٣ / ٤٣١) .
(٣) ظ (المرجع نفسه) (٣ / ٤٣١) .
(٤) (في ظلال القرآن) سيد قطب (٣ / ١٧٧٤) .
(٥) (الروم) (٥١) .
(٦) ظ (معالم التنزيل) البغوي (٦ / ٢٧٧) .

والضمير المنصوب في قوله (فرأوه مصفرّاً) يعود إلى آثار رحمة الله وهي الزرع ، والاصفرارُ دالٌّ على اليبْس والتلف ، والتعبير باسم الفاعل (مصفرّاً) دالٌّ على اقتضائه الوصفَ بمعناه في الحال[١] ، أي رأوه يصير أصفَرَ وذلك أمام أعينهم ؛ لتصوير حدثان الاصفرار ، ولم يقل : فرأوه أصفَرَ « والصُّفَارةُ من النبات ما ذوي فتغيَّر إلى الصُّفْرة »[٢] .

والتعبيرُ القرآنيُّ الفريدُ جاء في الآية بلفظةٍ دقيقة في قوله تعالى : ﴿ يكفرون ﴾ بعد قوله ﴿ لظلّوا من بعده ﴾ فاستعمل هنا الفعلَ المضارع لتصوير مبادرتِهم إلى الكفر والصّدود[٣] ثم استمرارِهم عليه ، بينما استعمل الأفعالَ الثلاثةَ ماضيةً في الآية في سياقها ؛لأنّها في سياق الشرط ، وهذا السياقُ يمْحَضُها للاستقبال ، وصيغةُ المضيِّ أخفُّ .

وهذا من ذمِّهم على تذبذبهم وتزلزلهم بين طرفي الإفراط والتفريط ، فهم قانطون في الجَدْب كافرون في الرخاء !

وقال بعضهم (فرأوه مصفرّاً) أي السحاب فلم يمطر ، وهذا قولٌ بعيد[٤]

وهنا ملْحظٌ يسند ما ذكرناه سابقاً من أنّ (الرياح) في الغالب للرحمة والبشارة و(الريحَ) للعذاب في آيِ الكتاب ، وهو أنّه – تعالى ذكره – نصَّ قبل آية الروم هذه بأنّه يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء[٥]وبعدها بآيتين ساقَ إرسالَ (الريح) ليصفرَّ بها نباتُهم عذاباً من الله وبلاءً .

الحالة الرابعة / (كونها في سياق التشبيه والتمثيل) :

(١) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (٢١ / ١٢٥) .

(٢) (لسان العرب) ابن منظور (٤ / ٢٤٥٨) مادة (صفر) .

(٣) ظ (التحرير والتنوير) (٢١ / ١٢٥) .

(٤) ظ (إرشاد العقل السليم) أبو السعود (٧ / ٦٥) .

(٥) ذكر هذا في (الروم) (٤٨) .ومثل هذا أنّه لم يأت لفظ (المطر) إلا للعذاب ، و(الغيث) إلا للرحمة . ظ – في هذا – (بيان المعاني) ملا عبد القادر (٤ / ٤٥٦) .

وهذا في ثلاثة مواطن من كتاب الله ، وهي كما سبق ذكرها .

أمّا أوّلها فقوله – جلّ ذكره – : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1] وهذا تشبيه لإنفاق هؤلاء الكافرين المفلسين في حياتهم حين ينفقون ، وأنّه مثلُ ريحٍ فيها بَرْدٌ وجليدٌ أو نارٌ تتلف الزرعَ والثمار ، فتحرق زرعَ هؤلاء الذي آن حصادُه وجَدَادُه لكنّها تدمّره وتُفْسده فالله يمحق ثوابَ أعمالِهم وإنفاقهم ، كما أذهب الحرْثَ بذنوب صاحبِه ولم يكن هذا بظلمٍ من ربِّهم ، ولكنّهم كانوا هم الظالمين[2] .

والشائع أن (الصِّرَّ) يطلق على الريح الباردة . وهذا عقوبة لهم بالإهلاك[3] .

فهذا كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[4] . وآية(آل عمران) الأُولى جاءت بعد بيان الله أنّ أموال الكافرين لا تغني عنهم شيئاً[5] ، وأنّهم ربما أنفقوا أموالهم في وجه من وجوه الخير ، فيظنّ أُناسٌ أنّهم قد ينتفعون بهذا ، فأزال الله هذه الشبهةَ بهذه الآية فيكون كفرُهم مبطلاً نفقاتِهم ، كما أنّ الريح تهلك الزرع ، فالحسنات منهم لا تستعقب الثواب ! ويتأكّد وجهُ التشبيه بأنّهم ظلموا أنفسَهم بزرعهم في غير موضع الزرع أو في غير وقتِه ؛ لأنّ الظلمَ وضعُ الشيء في غير موضعه[6] .

وهذا التمثيل والتشبيه متمِّم لمقصود الآيات قبلَه[7] ، ففيه مبالغةٌ في ذمِّهم وبيان بطلان أعمالهم وهلاكها ؛ لأنّ الإهلاكَ عن سخط أشدُّ وأبلغ ، وفيه ذمٌّ لهم حين يشتغلون بما لا يفيدهم .

---

(١) (آل عمران) (١١٧) .
(٢) ظ (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير (٣ / ١٦٣) .
(٣) ظ (تفسير البيضاوي) البيضاوي (٢ / ٨٢) .
(٤) (الأنفال) (٣٦) .
(٥) ظ (مفاتيح الغيب) الرازي (٨ / ٢١١) .
(٦) ظ (المرجع نفسه) (٨ / ٢١٤) .
(٧) ظ (حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي) الخفاجي (١ / ٤٠١) .

ويجوز في (ما) أن تكون – في الآية – موصولة اسميّة[١] ، وعائدها محذوف ، أي : مثل ما ينفقونه ، أو تكون مصدريّة ، فيشبَّه إنفاقُهم في عدم نفعه بالريح الموصوفةِ بهذه الصّفة وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس .

وتقديم ذِكْر (الريح) في التشبيه التمثيلي (المركب) هنا على ذكر (الحرث) ؛لأنّ في هذا تهديدا ووعيدا [٢] ، فكان ذكرُها أولى في الابتداء من الحرث ، عنايةً بذكرها ، ولأنّ الفِطَرَ السليمةَ قادرةٌ على ردِّ الكلام إلى أصله بأيسر وَجْه . ومن التتميم في الآية قوله (فيها صِرٌّ) عن الريح[٣] ، مبالغةً في الذِكْر والوصف . فذكَرَ الصِّرَّ ثم قيَّده بالظرفيّة ؛ لأنّها ريحٌ مطلقة قُيِّدت بالظرفيّة ، وكلُّ مقيَّدٍ ظرفٌ لمطلقه . فحصل بهذا التجسيد والتشخيص .

والتشبيه بالصِّرِّ بليغٌ ، وهو البَرْدُ[٤] ، وكأنّه جعل جنس الصِّرِّ هنا مظروفاً فيها وهي وهي تحمله إلى الحرث ، وهذا لشدّةِ بردِ هذه الريح وإهلاكها[٥] .

ومن غاية تحقيرهم وتحقير صنيعهم أنه قال (في هذه الحياة الدنيا) ومعنى هذا أنّه إيحاءٌ بأنهم قدَّموا هذه الأعمالَ على وجه القُرْبة أو غيرها[٦] ؛ لأنهم ضيَّعوا الوجه الذي به يُقْبل عملُهم وهو إخلاصهم لله لا للدنيا . فعوقبوا بخلاف قصدِهم .

ومن دقيق هذا التعبير القرآنيّ الفريدِ أنّ التالي قد يتحصَّل له شفقةٌ ورحمة على أصحاب هذا الحَرْثِ المهلَكِ ؛ لذا كان من الإدماج في التمثيل ليُكْسبَه التشويهَ والتفظيعَ

(١) ظ (تفسير اللباب) ابن عادل (٥ / ٤٨٣) .
(٢) ظ (إعراب القرآن وبيانه) محي الدين درويش (٢ / ٣٤) .
(٣) ظ (المرجع نفسه) (٢ / ٣٤) .
(٤) ظ (غريب القرآن) ابن قتيبة (١٠٩) و (مجاز القرآن) أبو عبيدة (١ / ١٠٢) .
وفيه أنه شدَّة البرد وعُصُوفُ الريح. و ظ (معاني القرآن) النحاس (١ / ٤٦٤) .
(٥) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (٤ / ٦١) .
(٦) ظ (نظم الدرر) البقاعي (٢ / ١٤٠) .

، ولينفي هذا الذي قد يتحصَّل[١] .

أمّا هم فقد خيَّب آمالَهم ما رأوا من انتصار الحقِّ والمنعةِ له أمام عسكرهم وما ينفقون[٢] وكيف انقلب الأمرُ عليهم – وهذا في الدنيا – ثم تكون لهم خيبةُ الآخرة – وهي أعظم – .

وهم الذين ظلموا أنفسَهم بالكفر الذي منع قبول نفقتِهم ؛ ولذا قدَّم المفعولَ ليراعيَ الفواصل من جهة[٣] ، وليثبت مثلَ هذا ؛ لأنّ الكلامَ في الفعل باعتبار تعلُّقِه بالفاعل لا المفعول – والله أعلم – .

وقوله: (ظلموا أنفسَهم) هو « إدماجٌ في خلال التمثيل يكسب التمثيلَ تفظيعا وتشويها وليس جزءا من الهيئة المشبَّه بها . وقد يذكر البلغاءُ مع المشبَّه به صفاتٍ لا يقصدون منها غيرَ التحسين أو التقبيح »[٤] .

ولو تساءلنا : كيف شبَّه الإنفاقَ بالريح الباردة المهلكة ؟ لكان الجواب أنّ « المثَلَ قسمان : منه ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصودُ من الجملتين وإن لم تحصلِ المشابهةُ بين أجزاء الجملتين . وهذا هو المسمّى بالتشبيه المركَّب . ومنه ما حصلت المشابهة فيه بين المقصود من الجملتين وبين أجزاء كلّ واحدة منهما . فإذا جعلنا هذا المثل من القسم الأول زال السؤال وإن جعلناه من القسم الثاني ففيه وجوه : الأوّل أنْ يكونَ التقديرُ : مثل الكفر في إهلاك ما ينفقون كمثل الريح المهلكة للحرث . الثاني : مثل ما ينفقون كمثل مهلك الريح ، وهو الحرث . الثالث : لعلّ الإشارة في قوله مثل ما ينفقون إلى ما أنفقوا في إيذاء رسول الله في جمع العساكر عليه وكان هذا الإنفاق مهلكاً لجميع ما أتوا به من أعمال الخيرِ والبرِّ وحينئذ يستقيم التشبيه من غير حاجة إلى إضمار وتقديم وتأْخير »[٥] . فيكون هذا تشبيها مركّبا فريدا عبَّرت به

(١) ظ (لمسات بيانية لسور القرآن الكريم) د. فاضل السامرائي (١ / ٢٥٧) .

(٢) ظ (مفاتيح الغيب) الرازي (٨ / ٢١٣) .

(٣) ظ (فتح القدير) الشوكاني (١ / ٦١٣) .

(٤) (التحرير والتنوير) ابن عاشور (٤ / ٦٢) .

(٥) (مفاتيح الغيب) الرازي (٨ / ٢١٢) ثم قال : « وهذا الوجه خطر ببالي عند كتابتي على هذا الموضِع =

الآياتُ عن المقصود والمراد من رمي هؤلاء الكافرين بالسّفاهة والتعب من دون جدوى ؛ إذْ ينفقون ما يكون سبباً في هلاكهم في الدنيا والآخرة!

« وهكذا ترتسم هذه الحقيقةُ في مشهد ينبض بالحركة ويفيض بالحياة على طريقة التعبير القرآنيّ الجميل .. إنّ أموالهم وأولادهم ليست بمانعتهم من الله ، ولا تصلح فديةً لهم من العذاب ، ولا تنجيهم من النار .. وهم أصحاب النار . وكلّ ما ينفقونه من أموالهم فهو ذاهب هالك ، حتى ولو أنفقوه فيما يظنونه خيرا ، فلا خير إلا أن يكون موصولاً بالإيمان ونابعاً من الإيمان ، ولكنّ القرآن لا يعبر هكذا كما نعبر . إنما يرسم مشهداً حيّاً نابضاً بالحياة »[1] .

وثاني هذه المواطن قولُه تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾[2] .

وهذا مثلٌ ضربه الله لأعمال الكفّار الذين بنوا أعمالهم على غير أساس صحيح[3] ، فانهارت وعدموها أحوجَ ما كانوا إليها ، فأعمالهم لا يجدونها عند الله ، فلا يُلْفُوْن حاصلاً نافعاً كما يتحصَّل من الرماد إذا اشتدَّت به ريحٌ عاصفة قويَّة ، فلا يقدرون على جمع هذا الرماد ، ولا يجدون نفعاً في الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[4] .

والعصف اشتداد الريح ، ووصف به زمانه للمبالغة كقولهم : نهاره صائم وليله قائم ، وجعل فَذْلَكَةَ التمثيلِ أنّهم لا يَقْدرون يومَ القيامة من أعمالهم على شيء لحبوطِهِ فلا أثرَ له ولا ثواب[5] . كما قال – سبحانه – ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا

=

الموضِع » (٨ / ٢١٢) .

(١) (في ظلال القرآن) سيِّد قطب (١ / ٤٥١) .

(٢) (إبراهيم) (١٨) .

(٣) ظ (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير (٨ / ١٨٩) .

(٤) (الفرقان) (٢٣) .

(٥) ظ (تفسير البيضاوي) البيضاوي (٣ / ٣٤٣) .

النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[١] .

وقوله ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مبتدأ و(أعمالُهم) مبتدأ ثانٍ . و(كرماد) خبر عنه. والجملة خبر عن المبتدأ الأول ، وصار الخبر عن (مثلُ الذين كفروا أعمالُهم) فآل الكلامُ إلى أنّ مَثَلَ أعمالِ الذين كفروا هنا كرمادٍ اشتدّت به الريح[٢] .

ووجه الشبه بين الحالين « هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شيء كثير بعد تجمعه ، والهيئة المشبَّهة معقولة »[٣] .

ومن دقائق تعبيرِ القرآن عن هذا المعنى في هذا المثل المضروب ،أنّ التشبيه ساقَ صورةَ (الرماد) المتجمِّع ، وهو من أفضل أعمال الكافرين وأشيعِها لدى المخاطبين – ابتداء – وهو قِرى الضيف[٤] كنايةً عن كرمهم بكثرة رماد بيوتهم ومنتدياتهم . والتعبيرُ نصَّ على أنّ عذابَ هؤلاء متحقِّقٌ في الآيات السابقة لهذه الآية من سورة إبراهيم ، فبيّن هنا أنّ أعمالهم بأسرها صائرةٌ إلى الضياع ، وهذا من كمال خسرانهم[٥]، وبيَّن بقوله (في يوم عاصف) عن شدّة هذا المفرِّق للرماد . وجعل العصْفَ لليوم وهو لما فيه أي الريح ، كأنّه قال : في يومٍ عاصفٍ ريحُه أو يوم ذي عصوف أو عاصفِ الريح ونحو ذلك ، وإنما حذف الريحَ لأنّه ذكرها في السياق قبلاً[٦]والعرب تعبّر عن هذا بهذه الطريقة كما يقولون : يوم ماطر وليلة ماطرة ، وإنما يكون المطرُ فيه وفيها . ويقولون : عصف يومُنا ، وذاك إذا اشتدَّتِ الريحُ فيه[٧] . واشتداد الريح هنا تعبيرٌ دقيقٌ جميلٌ يلبس الاستعارةَ ويَحْسُن بها[٨] .

---

(١) (هود) (١٦) .

(٢) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (١٣ / ٢١٢) .

(٣) (المرجع نفسه) (١٣ / ٢١٢) .

(٤) ظ (المرجع نفسه) (١٣ / ٢١٣) .

(٥) ظ (مفاتيح الغيب) الرازي (١٩ / ١٠٦) .

(٦) ظ (المرجع نفسه) (١٩ / ١٠٧ – ١٠٨) وإسناد العصف لليوم فيه مجاز عقليّ .

(٧) ظ (مجاز القرآن) أبو عبيدة (١ / ٣٣٩) .

(٨) ظ (تلخيص البيان في مجازات القرآن) الشريف الرضي (١٨٤) .

فهذا تشبيه تمثيليٌّ مركّبٌ ثالثٌ وجهُه أنّ الريحَ العاصفَ تطيِّر الرمادَ وتفرِّق أجزاءه بحيث لا يبقى له أثر ، وكذلك كفرُهم أبطل أعمالَهم فلا يبقى لها أثر[١] .

وهذا جاء في السّنّة حينما سألت أمُّنا عائشةُ – رضي الله عنها – سيّدَنا رسولَ الله – □ – فقالت : « يا رسول الله ، إن ابن جدعان كان في الجاهليّة يصل الرحمَ ويطعم المسكينَ فهل ذلك نافعُه ؟ قال : لا ينفعه .إنّه لم يقلْ يوماً: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين »[٢] .

والآية بهذا مسوقةٌ للتمثيل بهذا الخسران الذي يلحق هؤلاء .

« ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصفٍ مشهودٌ معهود ، يجسِّم به السياقُ معنى ضياعِ الأعمال سدى ، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها ، ولا الانتفاع به أصلاً يجسِّمه في هذا المشهد العاصف المتحرك ، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبيرُ الذهنيُّ المجرَّدُ عن ضياع الأعمال وذهابها بدداً ... وهكذا يلتقي المشهد المصوّر مع الحقيقة العميقة ، وهو يؤدي المعنى في أسلوب مشوّق موحٍ مؤثّر . ويلتقي معهما التعقيب : ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾[٣] » .

وهذا تذييلٌ جامعٌ مانعٌ لخلاصة حالهم ، وأنّها في ضلال بالغ نهاية ما تبلغه ماهيّتُه فهو بعيد في مسافات الضلال كقولنا : أقصى الضلال[٤] .

و« لمّا كان هذا خسراناً لا يمكن تداركُه سمّاه بعيداً »[٥] .

وثالث هذه المواطن في سوق الريح ضمن مثالٍ وتشبيه لغرض معنوي ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي

(١) ظ (إعراب القرآن وبيانه) محيي الدين درويش (٥ / ١٧٤) .
(٢) صحيح مسلم (٢١٤) كتاب الإيمان (باب الدليل على أنّ من مات على الكفر لا ينفعه عمل).
(٣) (في ظلال القرآن) سيد قطب (٤ / ٢٠٩٤) .
(٤) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (١٣ / ٢١٣) .
(٥) (فتح القدير) الشوكاني (٣ / ١٣٨ – ١٣٩) .

مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[1] والمثل هنا مضروبٌ لبيان أنّ مَنْ يشركُ مع الله غيرَه ، فمثله في البعد والضلال والذهاب عن ربِّه مثلُ مَنْ خرَّ من السماء فتخطفه الطيرُ فهلك ، أو تهوي به الريح من بعيد في مكان سحيق ، من قولهم : أبعده الله وأسحقه[2] . فهو قد خرَّ من السماء فلا تزال الطير تَخْطَفُهُ – ولذا عبّر فيها بالمضارع – أو تهوي به الريح في مكان بعيد سحيق .

وتَخْطَفُهُ الطيرُ أي تقطِّعه في الهواء[3] ، فيهوي ويخرّ من السماء ؛ لأنّه هوى وسقط من أوْج الإيمان إلى حضيض الكفر ، والأهواءُ الرديئة توزّع أفكارَه ، والشيطان طرح به في الضلال و(أو) هنا للتخيير أو للتنويع ، ويجوز أن يكون هذا من التشبيهات المركّبة، فمن يشرك بربِّه فقد هلكت نفسُه هلاكاً يشبه أحد الهلاكَيْن[4] .

و« إذا خطفت الطيرُ أوصالَه وتفرّق في حواصلها ، أو ألقته الريحُ في مكان بعيد فهذا هلاك محقّقٌ لا محيد عنه »[5] .

وكأنّ هذا التشبيه يصنِّف الكافرين إلى قسمين : قسم شِرْكهُ مذبذبٌ يُشبَّه بمن اختطفتْه الطيرُ ، فلا يستولي طائرٌ على مزعة منه إلا انتهبها منه آخرُ وقسمٍ صمَّم على كفره واستقرَّ فيه كمن ألقته الريح في مكان سحيق[6] .

والآية من الاحتباك في الأُسلوب[7] ؛ فخطف الطير الموجب للتقطّع أولاً دالٌّ على حذف التقطّع ثانياً ، والمكان السحيق الملزوم لبلوغ الأرض ثانياً دالٌّ على حذف الضدِّ أولاً .

---

(١) (الحج) (٣١) .

(٢) ظ (جامع البيان) الطبري (١٨ / ٦٢٠) .

(٣) ظ (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير (١٠ / ٥٣) .

(٤) ظ (تفسير البيضاوي) البيضاوي (٤ / ١٢٥) .

(٥) (أضواء البيان) الشنقيطي (٥ / ٢٥٦) .

(٦) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (١٧ / ٢٥٥) .

وفيه أنّ قراءة نافع (بفتح الخاء وتشديد الطاء) تؤكّد هذا المعنى بصورة أشدّ – وهذا ظاهر – .

(٧) ظ (نظم الدرر) البقاعي (٥ / ١٥٠) .

وصاحبُ (الكشّاف) يرى أنّه قد يكون تشبيهاً مركّباً ، وقد يكون تشبيهاتٍ مفرَّقةً . فالمركّب التمثيليُّ ظاهرٌ – كما أسلفنا – في بيان صورته ، أما المفرّقات فتشبيه الإيمان في علوّه بالسماء ، ومن أشرك بالله بالسّاقط من السماء ، والأهواء التي تتوزّع أفكارَه بالطير المختطِفة وتشبيه الشيطان بالريح التي تعصف به في المهاوي المتلفة[١] . وهذا فيه نظرٌ أشار إليه بعضُهم بكلام نفيس كشف فيه عدمَ تحقُّقِ المقصودِ لو قلنا بهذا التقسيم[٢] .

والمقصود من هذا تصويرُ حالِ هؤلاء المشركين على اختلاف أهوائهم .وقد أبدع القرآن في هذا التصوير بسرعة الحركة مع عنف شديد ، وتعاقب في استعمال (الفاء) الدالَّةِ على السرعة والحركة العجلى ، وأشار إليها السياقُ هكذا بسرعة الاختفاء (في مكان بعيد) وهي طريقة القرآن في التعبير بالتصوير ، حين صوّرتِ الآياتُ مَنْ يهوي من أُفق الإيمان السامق إلى حيث الفناءُ والانطواء والانتهاء[٣] !

فهذه مواطنُ ثلاثةٌ سيقت فيها الريحُ في سياقٍ دالٍّ على التشبيه لتقريب الصورة وتوصيلها إلى الذهن بجمال تعبير القرآن الدقيق .

الحالة الخامسة / (كونها في سياقٍ آخرَ غيرِ السياقات السابقة وإن كان مرتبطاً بها بعمومه) :

وجاء هذا في موطنين :

١/ أولُهما قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[٤] وهذه الآية في سياق تعليم المؤمنين آدابَ اللقاء ،

(١) ظ (الكشّاف) الزمخشري (٣ / ١٥٥) .
(٢) ظ (المرجع نفسه) (٣ / ١٥٥) هامش رقم (٤) من حاشية ابن المنير .
(٣) ظ (في ظلال القرآن) سيّد قطب (٤ / ٢٤٢١) .
(٤) (الأنفال) (٤٦) .

وطريقَ الشجاعة عند لقاء الأعداء[١] .

ومراده « وتذهب قوتكم وبأسُكم ، فتضعفوا ويدخلكم الوهن والخلل »[٢] وجاء عن بعض السلف تفسيرُها بريح الحرب ، أو النصر ؛ وذلك لأنّ النصر لا يكون إلاّ بريح يبعثها الله تضرب وجوه العدو[٣] .

فهو ينهاهم عن التنازع ، وجوابه أنّه إنْ تنازعوا فسيفشلوا وتذهبَ ريحُهم وقوّتُهم ، وإنّما شبَّه الدولةَ بالريح جَزْماً وقَطْعاً هنا « من حيث إنها في تمشِّي أمرها ونفاذه مشبَّهةٌ بها في هبوبها ونفوذها . وقيل المراد بها الحقيقة فإنّ النصرة لا تكون إلا بريح يبعثها الله »[٤] .

وفي اللغة : ذهبتْ ريحُهم أي دولتُهم[٥] ، والعرب تقول : الريحُ لفلان إذا كان غالباً[٦] .

.

والنهي عن التنازع هنا لعدم ذهاب الريح والقوّة والنصر جاء بتعبير دقيق ؛ فهو ينهاهم عن التنازع وهذا أعمُّ من الأمر بطاعة ولاة الأُمور ؛ لأنّهم إذا نهوا عن التنازع بينهم فالتنازع مع ولاتهم أولى بالنهي . ولمّا كان نزاعهم ناشئاً عن اختلاف آرائهم – وهو مرتكز في الفِطَر – بسط القرآنُ بيانَ سوئه فجاء بالتفريع بالفاء ، وحذَّرهم أمرين سيِّئي العاقبةِ وهما الفشلُ وذهابُ الريح . والتنازع يُثير التغاضبَ ويزيل التعاون ، وقد يتربَّص بعضُهم ببعضٍ الدوائرَ ويتوقّعون عدم إلْفَاءِ النصيرِ عند مآزق القتال . واستعار (الريح

---

(١) ظ (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير (٧ / ٩٦) .

(٢) (جامع البيان) الطبري (١٣ / ٥٧٦) .

(٣) ظ (المرجع نفسه) (١٣ / ٥٧٧) .

(٤) (تفسير البيضاوي) البيضاوي (١ / ١١٢) وقد سبق معنا الحديث الصحيح « نُصِرتُ بالصَّبا وأُهلكتْ عادٌ بالدَّبور » .

(٥) ظ (معاني القرآن) النحاس (٣ / ١٦٢) و(مجاز القرآن) أبو عبيدة (١ / ٢٤٧) و(غريب القرآن) ابن قتيبة (١ / ١٧٩) و(لسان العرب) ابن منظور (٤ / ٢٣٢٠) مادة (شمت) و(الريح) ابن خالويه (٥١) .

(٦) ظ (أضواء البيان) الشنقيطي (٢ / ١٠٢) .

) هنا للغلبة ، فهي لا يمانع جَرْيَها ولا عمَلها شيءٌ ، فشبَّه بها الغلبةَ والحُكْمَ[١] . ومنه قول أحدهم :

كما حَمَيناكَ يومَ النَعْفِ من شَطِبٍ والفضلُ للقومِ من ريح ومن عددِ[٢]

فالريح هنا النصرُ والقوّةُ أو الدولةُ أو ريحُ الصَّبا التي قد يُنْصَر بها المؤمنون[٣] . و« الريح إذا كانت في الحرب من جهة صفٍّ كانت في وجوه أعدائهم »[٤] .

وهي كناية عن بقاء الأمر وجريانه على المرادِ لكلّ أحد ، كما نقول : هبَّتْ ريحُ فلان[٥].وقيل الريح الهيبةُ، وهو قريبٌ من الدولة في المعنى[٦] ؛ لأنّ الريحَ يُسْتعار للغلبة[٧].

فهذا الموطن فيه بيانٌ بأنّ الريحَ تطلق أحياناً ويراد بها النصرُ والقوّة أو الريحُ الحقيقيّة – بحسب ما أوردنا من أقوال – .

ثانياً : قولُه تعالى – حكايةً عن يعقوبَ عليه السلام – : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾[٨] قالها لمّا فصلتِ العيرُ وبقي عنده مَنْ بقي من بنيه (إني لأجد ريح يوسف) لولا أن تقولوا بفندي وكِبَرِي . وقد هاجت ريحٌ فجاءت يعقوبَ بريحِ قميصِ يوسفَ ابنِه قيل مسيرة ثمانية أيّام ، وكان بينهما ثمانون عاماً منذ افترقا[٩] !

(١) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (١٠ / ٣١) .
(٢) البيت لعبيد بن الأبرص . ظ ديوانه (٥٣) – وهو من البسيط التام – .
(٣) ظ (فتح القدير) الشوكاني (٢ / ٤٥٢ – ٤٥٣) .
(٤) (نظم الدرر) البقاعي (٣ / ٢٢٤) .
(٥) ظ (تفسير اللباب) ابن عادل (٩ / ٥٣٣) .
(٦) ظ (الدر المصون في علم الكتاب المكنون) السمين الحلبي (٥ / ٦١٧) .
(٧) ظ (مفردات القرآن) الراغب الأصفهاني (١ / ٣٧٠) .
وظ (تلخيص البيان في مجازات القرآن) الشريف الرضي (٣٢٩) .
(٨) (يوسف) (٩٤) .
(٩) ظ (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير (٨ / ٧٠) .

وهكذا لمّا كان القميصُ فيه ريحُ يوسفَ – وكلُّ داءٍ يداوى بضدّه[١] ، وكان يعقوبُ قد قد أُودعَ قلبُه حبَّ ابنِه شوقاً وحزناً – أراد شمَّه ليكون شفاؤه كما أراد الله الذي أطْلَعَ يوسفَ على هذا العلاج لأَبيه .

وقد ذُكر أنّ الريحَ استأذنت ربَّها لتأتِيَ يعقوبَ بريح ابنه يوسفَ قبل مجيء البشير فأذن لها فجاءته بريحه[٢] .

وكان يعقوبُ – عليه السلام – على يقينٍ من هذا ؛ لذا أكّده بإنّ واللاّم[٣] ثمّ أعْقبه بقوله : ﴿ لولا أنْ تفنِّدون ﴾ وهذا يدلّ على أنّ « كلّ سهل فهو في زمان المحنة صعب . وكلّ صعب فهو في زمان الإقبال سهل »[٤] ، وقد عبَّر عنه يعقوبُ بالوجدان بالوجدان ؛ لأنّه وجده وشمَّه على الحقيقة بحاسَّة الشمّ[٥] .

وشمُّهُ الرائحةَ دليلٌ أنّ يوسفَ – عليه السلام – كان يلبس هذا القميصَ قريباً . وقيل هو القميص الذي قُدَّ من دُبُرٍ لبيان براءته من الزنا ! وهذا تخريج بعيد[٦] .

والآيةُ سائرةٌ مسارَ الإعجازِ لنبيِّ الله يعقوبَ – عليه السلام – « فما يخطر على بال أحد أنّ يوسفَ بعْدُ في الأحياء بعدَ هذا الأمدِ الطويل . وأنَ له ريحاً يشمُّها هذا الشيخُ الكليل»[٧] . فسبحان العليم القدير !

(١) ظ (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) السعدي (١ / ٤٠٥) .
(٢) ظ (جامع البيان) الطبري (١٦ / ٢٤٩) .
(٣) ظ (التحرير والتنوير) ابن عاشور (١٣ / ٥٢) .
(٤) (مفاتيح الغيب) الرازي (١٨ / ٢١٢) .
(٥) ظ (المرجع نفسه) (١٨ / ٢١٢) .
(٦) ظ (حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي) الخفاجي (٥ / ٢٠٤) .
(٧) (في ظلال القرآن) سيد قطب (٤ / ٢٠٢٨) .

الخاتمة

خلق الله الريحَ خلقاً عجيباً ، وجعلها آية من آياته ، ذاتَ حِكمٍ وعبر . وندب عبادَه للتفكُّر فيها والنظر في عبرها، نظراً ينير القلبَ ويسقيه الإيمانَ وصاغ القرآنُ هذا كلَّه في لوحة عجيبةٍ تصويراً وطريقة ، ولفظاً وحرفاً .

ووقف هذا البحثُ مع بساط اللّغة في معاني الريح ورجوعها إلى السَّعة والفسحة والاطّراد ثمّ وقف مع مواطن ذكرها في القرآن – وهي تسعة عشر موطناً قام الباحث بتقسيمها من لدنه تقسيماً يؤشِّر على المعاني والمقاصد ، ثمّ يقف مع البناء اللّغويّ والبيانيّ الأدبيّ لظلال ألفاظ كلِّ موطن . فكان تقسيماً خماسيّاً لورود الريح في كتاب الله : عذاباً أليماً وجنداً من جند سليمان – عليه السلام – وآيةً للخلق في سياق الامتنان ، ومسوقةً مساقَ التشبيهِ والتمثيل ، ومذكورةً في سياقٍ آخرَ يعود إلى الأصول ، في موطنين من كتاب الله » .

وأقام البحث فرقاً بين هذه الإيرادات وبين مورد (الرياح) عشرَ مرَّات في القرآن : آيةً عامةً للخلق ، ومثلاً مع إنزال الماء وخروج النبات وزواله، على زوال هذه الحياة في نهاية المطاف ومسوقةً مساق البُشْرى بين يدي الغيث من السماء ؛ ليكون هذا دليلاً على أنّ الوصفَ الأغلبيَّ للرياح أنّها تذكر للتبشير بالغيث والرحمة .

ولئن جاءتِ (الريحُ) في الغالب للعذاب ، و(الرياحُ) للبشارة بالرحمة والغيث ؛ فإنّ هذا لم يستقم في مثل سورة يونسَ (بريحٍ طيّبةٍ) .أمّا الريح في مواطنها من كتاب الله ، فكانت عذاباً أليماً في سبعةِ مواطنَ تذكر العذاب الأليم ، ومن أرسلت إليهم بالنكال عارضاً ممطراً من السماء بالعذاب ، وصرصراً في أيام نحسات ، وريحاً صرصراً في يوم نحسٍ مستمرّ ، وصرصراً عاتيةً تجعلهم كأعجاز النخل ، وريحاً عقيماً مدمّرة ، وقاصفاً تُغْرق ، وعذاباً يهزم الأحزابَ يوم الخندق مصحوباً بجنود من السماء .

ثمّ هي (في الحالة الثانية) من جند سليمان عاصفةً تجري بأمره تحت علم الله الذي خلقها وهي في الوقت ذاته له طيّبة رخاء حيث أصاب تسخيراً من الله سبحانه الذي

إذا عذّب قدر على أن يعذّبَ بما به البقاءُ والوجودُ وهو التراب والماءُ والهواء والنّار ، فسبحانه عزّ سلطانه!

و(الحالة الثالثة) تكون فيها مسوقة بوصفها آيةً للخلق على سبيل الامتنان . فلولاها – بقدر الله – ما سارتِ المراكبُ في البحر ، وما انتفع الناسُ بهذا .

والعبيدُ لا يذكرون آلاءَ اللهِ إلاّ إذا كانوا في وقت الشدّة ، أمّا في رخائهم فإنّ كثيراً منهم يكفرون ، وقليل من عباده الشكور !!

والقرآن هنا يسوق ذكرَ الريحِ العاصفِ؛ لتكون مذكِّرةً بعد التسيير الهنيء المُنْعَمِ به من الله ليكون البلاء ، وتتكشفَ النعْماء .

وهم الذين يكفرون بنعمة الغيث إذا أنعم الله عليهم ، فيكون من جزائهم أَنّه يرسل ريحاً تجعل نباتَهم الأخضرَ اليانعَ بعد الغيث والرحمة مصْفَرّاً ؛ليذكّرَهم وجوبَ الشكرِ، ولكنّهم يكفرون !

أمّا (الحالة الرابعة) فتساق لهم الريحُ تشبيهاً وتمثيلاً لما يعمله الكافرون، وأنّه هباءٌ منثور كريح باردةٍ أو حارّة تتلف الزرعَ بعد نمائه أو كرمادٍ اشتدّت به الريحُ في يومٍ عاصف لا يستطيعون جمْعَ شيءٍ منه !

أو أنّهم كحالِ مَنْ أشرك بالله فكان مثلُه خارّاً من السماء فتخطفه الطيرُ أو تهوي به الريحُ في مكان سحيق بعيدٍ؛ فكيف يكون مصيره ؟ إنّه الهلاكُ لا محالة.وهذا في تشبيهاتٍ مركّبة فريدةٍ صوّرها القرآنُ بصورة جميلة .

أمّا (الحالة الخامسة) فسياقان مردودان إلى شيء ممّا سبق :

أولهُما التحذيرُ من التنازع؛ لأنّه طريقُ الفشل وذهابِ القوّة والنصر والدولةِ واطّرادِ التمكُّن إلى الضعف والفرقة والخَوَرِ .

وثانيهما في وجودِ ريحِ يوسفَ من أبيه – عليهما السلام – بعد أنْ هاجتِ الريحُ ما في قميص يوسفَ من الرائحة التي يميّزها يعقوبُ ، ويشتّمها بحاسّة الشمِّ منّةً من الله ومعجزة !!

كلّ هذا صوَّره القرآنُ تصويراً فريداً مبتكراً ، حين تكون عقيماً تحمل العذابَ والنكال وحين تكون رُخاءً طيّبة ليّنة ، وفق تعبيرِ القرآن وتصويرِه الشّامل .

المراجع

١. (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) محمد العمادي (أبو السعود) دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٢. (أساس البلاغة) جار الله محمود بن عمر الزمخشري . ت : محمد باسل عيون السيود . الأولى (١٤١٩ – ١٩٩٨) دار الكتب العلمية . بيروت

٣. (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) محمد الأمين الشنقيطي (١٤١٥ – ١٩٩٥) دار الفكر . بيروت .

٤. (إعراب القرآن وبيانه) محيي الدين الدرويش . دار الإرشاد . سوريا .

٥. (إيجاز البيان عن معاني القرآن) بيان الحق محمود النيسابوري . ت: د.حنيف القاسمي (١٤١٥) دار الغرب الإسلامي . بيروت .

٦. (الإيضاح في علوم البلاغة) محمد بن عبد الرحمن (الخطيب القزويني) عناية : إبراهيم شمس الدين . الأولى (١٤٢٤ – ٢٠٠٣) .دار الكتب العلمية بيروت.

٧. (البحر المحيط) محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ت :عادل عبد الموجود وآخرين الأولى (١٤١٣ – ١٩٩٣) .دار الكتب العلمية بيروت.

٨. (بيان المعاني) ملا آل عبد القادر (١٣٨٢) مطبعة الترقي . دمشق .

٩. (التاريخ الكبير) الإمام البخاري، دار الباز للنشر والتوزيع، عباس الباز، مكة.

١٠. (التحرير والتنوير) محمد الطاهر بن عاشور (١٩٨٤) الدار التونسية . تونس .

١١. (التسهيل لعلوم التنزيل) محمد بن أحمد بن جُزيّ ، عناية محمد سالم هاشم. الأولى (١٤١٥ – ١٩٩٥) دار الكتب العلمية . بيروت .

١٢. (تفسير ابن عرفة المالكي) محمد بن محمد بن عرفة، ت: حسن المناعي . الأولى (١٩٨٦) مركز البحوث بالكلية الزيتونية . تونس .

١٣. (تفسير البيضاوي) عبد الله بن عمر البيضاوي . دار الفكر . بيروت .

١٤. (تفسير الشعراوي) محمد متولي الشعراوي(١٩٩١) طبعة أخبار اليوم . القاهرة .

١٥. (تفسير القرآن العظيم) إسماعيل بن كثير الدمشقي . ت : مصطفى السيد محمد وآخرين الأولى (١٤١٢ – ٢٠٠٠) مؤسسة قرطبة . الجيزة مصر .

١٦. (التفسير القرآني للقرآن) د.عبد الكريم الخطيب . دار الفكر العربي القاهرة
١٧. (تفسير اللباب) عمر بن علي بن عادل الدمشقي . دار الكتب العلمية . بيروت.
١٨. (تفسير النسفي) عبد الله بن أحمد النسفي. ت : مروان محمد الشعار (٢٠٠٥) دار النفائس . بيروت .
١٩. (تلخيص البيان في مجازات القرآن) الشريف الرضي . دار الأضواء . بيروت .
٢٠. (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) عبد الرحمن السعدي. ت : عبد الرحمن اللويحق الأولى (١٤٢٠) مؤسسة الرسالة . بيروت .
٢١. (جامع البيان) محمد بن جرير الطبري ، ت:أحمد محمد شاكر الأولى.(١٤٢٠ – ٢٠٠٠) ، مؤسسة الرسالة . بيروت .
٢٢. (جامع البيان في تأويل القرآن)محمد بن جرير الطبري . ت : أحمد محمد شاكر الأولى (١٤٢٠ – ٢٠٠٠) مؤسسة الرسالة .بيروت .
٢٣. (الجامع الصحيح) المسمى صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري.ت : د.مصطفى البغا (١٤٠٧ – ١٩٨٧) دار ابن كثير . بيروت .
٢٤. (الجامع الصحيح)وهو سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى ابن سورة الترمذي (٢٠٩–٢٧٩هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
٢٥. (الجامع لأحكام القرآن) محمد بن أحمد القرطبي . ت : هشام البخاري.(١٤٢٣ – ٢٠٠٣) . دار عالم الكتب . الرياض .
٢٦. (جمع الجوامع) وطبع باسم (الجامع الكبير) لجلال الدين السيوطي، بتحقيق (خالد عبد الفتاح شبل)، دار الكتب العلمية ، القاهرة ٢٠٠١.
٢٧. (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار النشر: دار الكتاب العربي – بيروت – ١٤٠٥، الطبعة: الرابعة.
٢٨. (الدر المصون في علوم الكتاب المكنون) أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ت : د. أحمد محمد الخراط (١٤٠٦ – ١٩٨٦) دار القلم – دمشق .
٢٩. (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) جلال الدين السيوطي ت : د. عبد الله التركي الأولى (١٤٢٤ – ٢٠٠٣) مركز هجر . القاهرة .
٣٠. (ديوان أبي تمام) أبو تمام الطائي . شرح الخطيب التبريزي . عناية راجي الأسمر. الثانية (١٤١٤ – ١٩٩٤) دار الكتاب العربي.بيروت.

٣١. (ديوان البرعي) عبد الرحيم أحمد البرعي (٢٠٠٧) دار المعرفة
٣٢. (ديوان ذي الرّمّة) غيلان بن عقبة(ذو الرّمّة)شرح الخطيب التبريزي عناية مجيد طراد .الثانية (١٤١٦ – ١٩٩٦)دار الكتاب العربي . بيروت.
٣٣. (ديوان عبيد بن الأبرص) عبيد بن الأَبرص . شرح أشرف أحمد عَدرَة الأولى (١٤١٤ – ١٩٩٤) . دار الكتاب العربي . بيروت .
٣٤. (روح البيان) إسماعيل حقي . دار إحياء التراث العربي . بيروت
٣٥. (روح المعاني) في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. محمود بن عبد الله الآلوسي ت : علي عبد الباري عطية (١٤١٥) دار الكتب العلمية بيروت .
٣٦. (الريح) أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه . تعليق : د:حسين محمد شرف.الأولى(١٤٠٤ – ١٩٨٤) مؤسسة الحلبي . المدينة .
٣٧. (سلسلة الأحاديث الصحيحة) محمد ناصر الدين الألباني(١٤١٦ – ١٩٩٦) مكتبة المعارف . الرياض .
٣٨. (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة) محمد ناصر الدين الألباني. الأولى(١٤١٢ – ١٩٩٢) دار المعارف . الرياض .
٣٩. (سنن أبي داود) سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار النشر: دار الفكر – –، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
٤٠. (سنن ابن ماجة) محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، دار النشر: دار الفكر – بيروت – – ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
٤١. (صحيح الجامع الصغير وزيادته) محمد ناصر الدين الألباني . الثالثة (١٤٠٨ – ١٩٨٨) . المكتب الإسلامي .بيروت .
٤٢. (صحيح مسلم) مسلم بن الحجاج النيسابوري . تنفيذ بيت الأفكار الدولية.(١٤١٩ – ١٩٩٨) الرياض .
٤٣. (ضعيف الجامع الصغير وزيادته) محمد ناصر الدين الألباني . الثالثة (١٤٠٨ – ١٩٨٨) . المكتب الإسلامي . بيروت .
٤٤. (عبودية الكائنات) فريد إسماعيل التوني (الأولى) (١٤١٣ – ١٩٩٢) مكتبة الضياء . جدة .

٤٥. (عناية القاضي وكفاية الراضي) المسمَّى حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي. أحمد بن محمد الخفاجي . دار صادر . بيروت .

٤٦. (غريب القرآن) عبد الله بن مسلم بن قتيبة .ت : أحمد صقر (١٣٩٨ – ١٩٧٨) دار الكتب العلمية .بيروت.

٤٧. (الغريب المصنف) أبو عبيد القاسم بن سلام . ت : د/ محمد المختارالعبيدي. الثانية (١٤١٦ – ١٩٩٦) دار مصر للطباعة . القاهرة.

٤٨. (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير) محمد ابن علي الشوكاني ت : د. عبد الرحمن عميرة . دار الوفاء .

٤٩. (في ظلال القرآن) سيد قطب . دار الشروق . القاهرة .

٥٠. (كتاب السنة) ابن أبي عاصم . ت : محمد ناصر الدين الألباني الأولى.(١٤٠٠ – ١٩٨٠) المكتب الإسلامي . بيروت .

٥١. (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)جار الله محمود الزمخشري(١٤٠٧)دارالكتاب العربي بيروت .

٥٢. (كشف المعاني في المتشابه من المثاني) بدر الدين بن جماعة . ت : د: عبد الجواد خلف (١٤١٠ – ١٩٩٠) دار الوفاء . المنصورة .

٥٣. (الكشف والبيان) أحمد بن محمد الثعلبي ت : محمد بن عاشور الأولى.(١٤٢٢ – ٢٠٠٢) دار إحياء التراث العربي .بيروت .

٥٤. (لسان العرب) محمد بن مكرم بن منظور ت : عبد الله الكبير وآخرين دار المعارف – القاهرة .

٥٥. (لمسات بيانيَّة) د. فاضل السامرائي .كتابٌ شبكيٌّ(الكترونيّ)،ولمّا يطبعه المؤلِّف

٥٦. (مجاز القرآن) أبو عبيدة معمر بن المثنى ت : محمد فؤاد سزكين مكتبة الخانجي القاهرة .

٥٧. (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) علي بن أبي بكر الهيثمي، دار النشر: دار الريان للتراث/دار

الكتاب العربي – القاهرة. بيروت (١٤٠٧هـ).

٥٨. (محمد بن عثمان بن أبي شيبة وكتابه العرش) دراسة وتحقيق د. محمد التميمي . الأولى (١٤١٨ – ١٩٩٨) مكتبة الرشد . الرياض .

٥٩. (مسند الإمام أحمد بن حنبل) الإمام أحمد بن حنبل ،دار الفكر العربي. والنسخة الصادرة من مؤسسة الرسالة بتحقيق جماعة بإشراف الشيخ شعيب الأرنأؤط.

٦٠. (مسند الشاميين) سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤٠٥ – ١٩٨٤، الطبعة: الأولى، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

٦١. (المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل) المسمى صحيح مسلم . مسلم بن الحجاج القشيري عناية : نظر محمد الفاريابي الأولى.(١٤٢٧ – ٢٠٠٦) دار طيبة . الرياض .

٦٢. (مشكاة المصابيح) محمد بن عبد الله التبريزي ت : محمد ناصر الدين الألباني. الثانية (١٣٩٩ – ١٩٧٩) بيروت .

٦٣.(المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية) الحافظ ابن حجر العسقلاني ، تنسيق : د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري، دار العاصمة ، دار الغيث – السعودية ، الطبعة : الأولى ١٤١٩هـ.

٦٤.(المطر والرعد والبرق والريح) عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا ت : طارق محمد العمودي الأولى (١٤١٨ – ١٩٩٧) دار ابن الجوزي الدمام .

٦٥.(معالم التنزيل) الحسين بن مسعود البغوي . الأولى (١٤٠٩ – ١٩٨٩) دار طيبة . الرياض .

٦٦.(معاني القرآن) أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس . ت : محمد علي الصابوني (١٤٠٨ – ١٩٨٨) جامعة أم القرى .مكة.

٦٧.(معاني القرآن) سعيد بن مسعدة الأخفش . ت : فايز فارس الثانية (١٤٠١ هـ) دار البشير ودار الأمل .

٦٨.(معاني القرآن) يحيى بن زياد الفراء ت : أحمد نجاتي وآخرين . الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة .

٦٩.(معجم مقاييس اللغة) أحمد بن فارس ت : عبد السلام هارون (١٣٩٩ – ١٩٧٩) دار الفكر .

٧٠. (مفاتيح الغيب) محمد الرازي الأولى (١٤٠١ – ١٩٨١) دار الفكر . بيروت.

٧١.(مفردات ألفاظ القرآن) الراغب الأصفهاني الثانية(١٤١٨ – ١٩٩٧)دار القلم دمشق

٧٢.(المفردات في غريب القرآن) الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت : صفوان داودي (١٤١٢) دار العلم . الدار الشامية (دمشق – بيروت).

٧٣. (مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها) أبو بكر الخرائطي ، تحقيق ودراسة : الدكتور عبد الله بن بجاش بن ثابت الحميري،مكتبة الرشد سنة ٢٠٠٦ م.

٧٤.(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي ت : عبد الرزاق المهدي (١٤١٥ – ١٩٩٥) دار الكتب العلمية .بيروت.

٧٥.(الهداية إلى بلوغ النهاية) مكي بن أبي طالب القيرواني ت : رسائل جامعية بجامعة الشارقة . الأولى(١٤٢٩ – ٢٠٠٨) كلية الشريعة جامعة الشارقة .